

أحوال الديار

قصص

عبد العزيز مشري

إهـــداء

إلى " أحمد "
الجميل دائماً

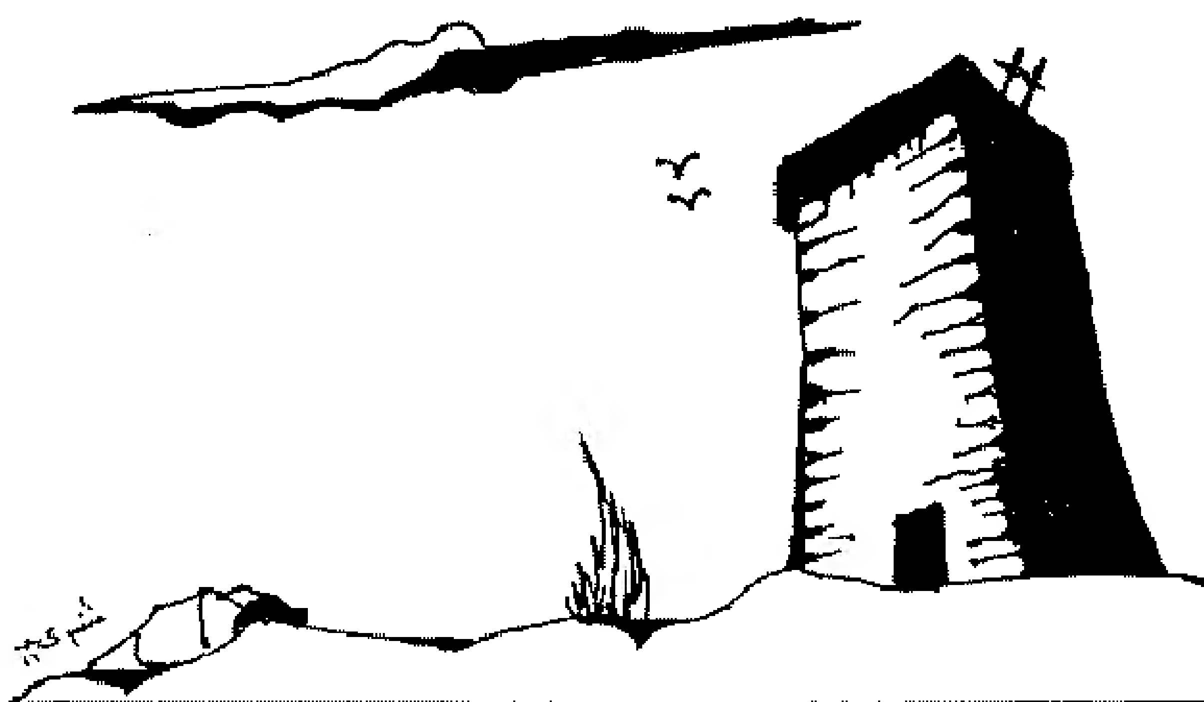
الغلاف واللوحات الداخلية للمؤلف

" ينبغي أن نحاول توعية البشر على
العظمة الكامنة فيهم
والتي يجهلونها "

«أندريه مالرو»

صدرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة عن النادي الثقافي الأدبي
بجدة عام ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

الرقبة



رقبة واحدة بكامل رأسها وبدنها، لأهل قبيلة بني فلان.. عند قبيلة بني فلان.

فبعد شهور مضين ببياضهن وسوادهن؛ على قوم رأوا النقيصة في الحق، والهزلة في ثمن لا تنوب عنه نائبة إلا جنسه.. وما قيمة النفس المسفوكة أمام عرف القبائل، إلا النفس؟!

ليس على من رغب في سَبر حقائق الحروب بين الرجال اليوم مطيّة، فالبنادق أفرغت بطونها، عند أول مستغيث صاح في مسامع القبيلة. فإن كان في الوقت باعٌ من الفراغ، فها إن الآدميين يدورون عن سبب ينضحون به دماء الخطيئة، ويقتصون من المعتدي الفرد باسم قبيلته.. فهو ليس ابن فلان في الذنب.. بل ابن قبيلة بني فلان. وعلى من تسوقه إلى الحتف، غياهب الغيب.. فاتحة الكتاب والدعاء بالرحمة.

* * *

اليوم.. أغدقت القبائل جام سبابها، وعيرتنا بالخذلان والهزيمة، فمن منا "يعرف خال خاله"؟، ويقول أنا ابن قبيلتي، التي منها أبي: فلان، يأخذ رقبةً بالرصاص من قبيلتهم، يغدو مرتعه حميداً فوق ألسنتنا.. ويكون بين القبائل مذكوراً.

صمت الجميع.. وجرت النخوة المشروطة بعروق "دامك المدموك"، فضرب على صدره، باسطاً كفه بخمستها على موضع القلب، ونطق بكامل التهيؤ والاستعداد.. على أن ينفذ له الجماعة مطلباً لا يحيد بالطمع في مطلب غيره.

قالوا: هات يا ابن مدموك.

قال: لا أقول حتى تضمنوا لي مطلبي.

قالوا: من يشتري الطير في الهواء قل لنا ننظر ونرد، فنكونُ بالحكمة غير مخالفين.

أهمل يده عن مكان القلب في الصدر، وبثّ نظرة في الوجوه؛ وقال: أربعة رجال مسلحين بالبنادق تحضروهم.

وبالقول العجيب نشدوه عن حاجته إليهم، فقال مفصلاً على أصابع اليد: اثنان من أمامي، واثنان من خلفي.. بعدها لا تحملون هماً.. "ابشروا برجّال".

* * *

(لا أضحك الله لك سناً يا "ابن مدموك".. تريد من الرجال أربعة.. تغزو بهم قبيلة بني فلان، لتأخذ بثأر رقبة لنا عندهم؟!.. كفاك يا فارس الزمان؛ وقاهر المهام.. لو أن أربعة سيحترمون بالسلاح؛ وتعلم قبلاً تجاههم، لما اجتمعنا في مثل مجلسنا هذا).

هيا.. قم، والزم الطريق إلى بيتك، فإن مجالس الرجال.. لا تجد لك فيها مكاناً.

* * *

قال المقوّلون، و حثتها الأشداق في الجبال والوديان:

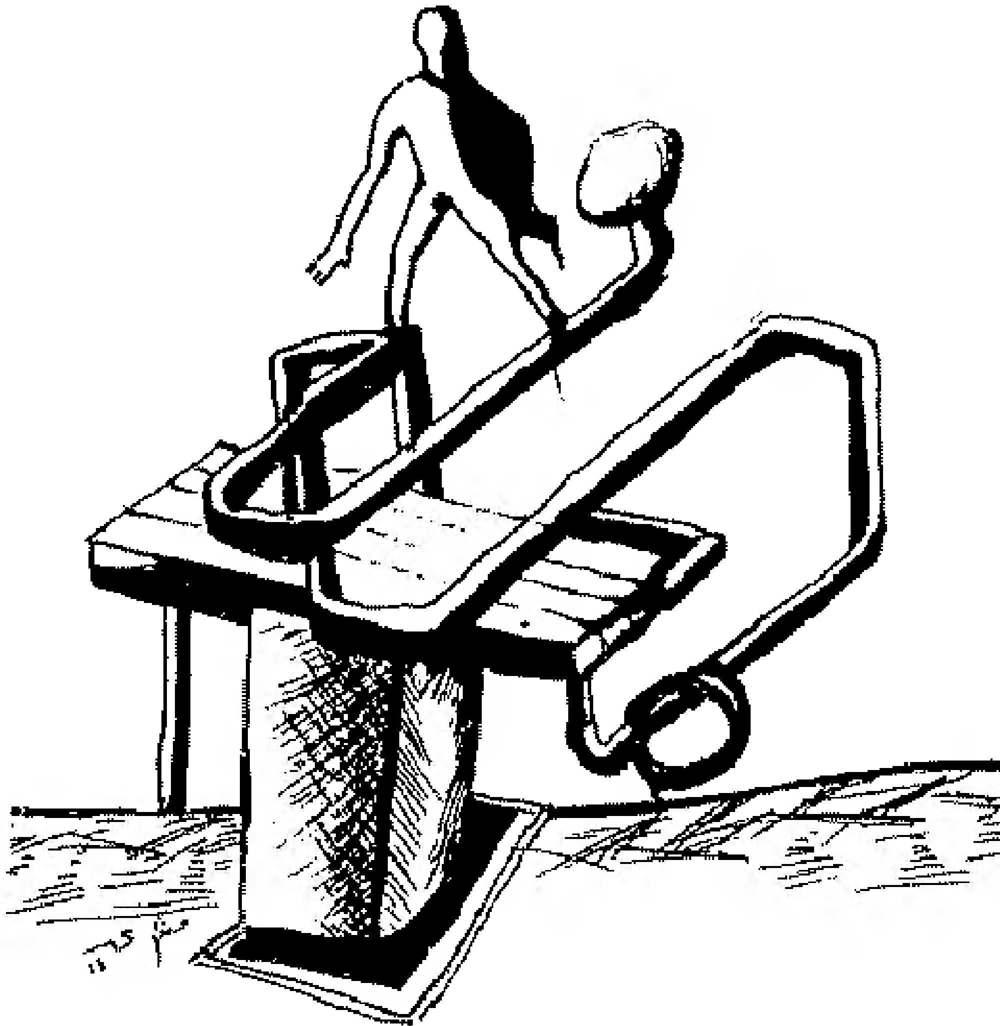
تحيّن القوم يوم سوق القُرى، وفي مكمن الغافل، أمسكوا في الطريق برجل من غريمتهم القبيلة المعادية، وكان على ظهر حمارته.. ينوي السوق وقت صباح العالمين، فأنزلوا على رأسه حد الفأس، دون صوت للبنادق.

عادوا بالنشوة على الضعيف منتصرين.

عاد هو ملمماً في ثيابه بالدم والموت وحسرة المظلوم؛ إلى أهله يغسلون ويكفنون.. وليندبوا أولا يحزنون فقد "وقع الفأس في الرأس".

١/٨/١٩٩١ — جدة

الوانيت



باع "أبو عبد الله" الحمارة برخص التراب، وأربعاً من الغنم، وعرض على الجماعة في مقعد ما بعد العصر.. جبته الصوفية ذات اللون الأحمر للبيع.

وأحاطت زوجته قامتها بلفة من يدها حلفاناً بساليمين؛ أنها لم تدخر من جوهر الفضة وحبات "الظفار".. بعد اليوم شيئاً. وما دام الحال، سيغدو مثل الآخرين في الأحوال.. فما الحاجة إلى متاع لا يجعل المرء في عيون الناس غير ناقص عنهم؟!.

اليوم، ابتاع "الجبلي" سيارة "وانيت" بيضاء، بحوض يتسع لكل ثقيل يحمل عليه، والبارحة؛ كان "أبو خُرج" بعد أن كسّر وجبّر، يهيئ لسيارة أبنه التي اشتراها من فوق لحمه الحي.. مكاناً فسيحاً في الساحة. وتقول "صالحة الفرويّة" إنها أراحت عجيزتها حلفما اشترى أبو العيال؛ سيارة، تحمل الماء والطين، ومقاضي السوق،، والمريض إلى الدكتور، والصبيان إلى المدرسة.

فماذا ينقصك يا "أبو عبد الله" عن الجماعة!

ولماذا تميز رجال القرية عنك؟. لهم مثل ما لك، مزارع، وماشية، وبيوت من حجر وطين.. فلتجمع فتات مالك وحلالك و"حلي" "أم عبد الله" ولتستعين بذي الرزق البصير، توكله فيه

على خطوتك إلى صاحب معرض السيارات، الذي يبيع بما يفيض من حاضر النقد، وبالدين، وبالتقسيط.. تشتري سيارة فارعة البياض، بخطوط جانبية حمراء، وحوض مسيّج بالقضبان.

* * *

جرى ما جرى من أمر البيع والشراء، وكتب البائع على صاحبنا في وثيقة البيع.. قسطاً من القيمة يسدد على مدار عام.. يبدأ بعد شهر قمري.. فرضي "أبو عبد الله".. يكون "عبد الله" بعد شهر قد تخرّج من "معهد إعداد المعلمين" ووجّه مدرساً.. يقبض المعاش ويسد القسط.

وحين غمس "عبد الله" مفتاح السيارة في رقبة المقود، واستنهض معرفته التي جمعها مع الأيام من بعض زملائه أصحاب "الوانيتات".. وجّه قبلتها من مكان المعرض بمركز سوق القرى، إلى أن وضعت دواليبها السود الأربع في أول مدخل خط القرية الترابي.

وكانت فرحة طفولية تلمع في صدره كالنجم الأخضر، وترجرج مع رجرجات الطريق الجبلي المتعرّج، بينما كان "أبو عبد الله" الشايب، يتوقى متحسساً وقع دوران العجل على

صلابة الأرض. وتصاريسها المكتسية بحصى و تراب، وكان هو الآخر يترجرج، ويحاول أن تدير رائحة البنزين رأسه المعمم، فتستثار معدته ويرى النجوم في عز الظهيرة. غير أن سعادة يسيرة؛ ربما تكبر في البيت.. كانت تتمسى حفافاه.

استقبل الأولاد على مسافة من البيت بعيدة؛ السيارة الجديدة، وعلقوا بحوض صندوقها كالحالمين.. فنهرهم أبوهم مخافة أن يقعوا عن ظهرها فتدهسهم، وشتم شقاوتهم.. لكنه ما لبث أن بلع لسانه أمام مقدم الضيف الجديد، والمنتظر منذ زمن ليس بالقصير.

وقالت "أم عبد الله" وهي تقر عينيها بابنها المتعلم:

الحمد للذي لا "تنسها عينه ولا تنام".. اليوم اهنئي يا بنت فلان، لديك الزوج الحب، والولد، ولديك في عيون الأخريات، كالعروسة سيارة بيضاء "وانيت".. بخطوط في الجانبين حُمر؛ لا تنقص ولا تنقص عن سيارة "صاحبة القَرويّة" أو "الجبلي".

تبادل كل أهل الدار التهاني والتبريكات، وأحضروا إلى قربها في الساحة قهوتهم، وقعدوا جميعاً يتأملون.. يقتهون، وبحسن الكلام والمُلحة يتحدثون.

وسقطت البنت الصغيرة بتوكها الشبيه بمكنسة القش.. من على جانب حوض السيارة.. إثر قفزة شقية تعلق بها ثوب، فلقيت مع عناء سقطتها؛ ثاراً من الإهانة والوعيد، ابتعته مع كثير من

لعاب الصم، وقصر العين، وسائل لأنف لدي حد عسى هيئة الصمع المبس ساماء فوق كُفيّ اليدين.

* * *

شهر مضى بأيامه الثلاثين، كما تمرص حبات القلادة من حسبه العتيق، وحان على "أبو عبد الله" أن يسدد صاحب معرض السيارات قسطه الشهري الأول. و"عبد الله" الذي يمضي غرّ وقته في أول شباب: مع السارة، فحتلق المشاوير، ويطيل عن البيت في الغياب.. فكان ما كان من نتيجة الدراسة. (ولم يكتب الله لغير ذي الاجتهاد نصيباً في النجاح.

امتدت يد الأب إلى عيمات تقير من القطيع، ويصاحب المعرض أرق يدين اتقسط، وإذ كانت "الأولات الروسح"، عليه في تدبير شأن العباد مع بوادي الأيام؛ شأن سيكون جديد.

وقالت "أم عبد الله": حين هاج وماج صدر النسايب بالحسرة والغضب:

لا تثقل يا مخلوق عني وسك، انظر ابن فلان وابن فلانة.. يبدر أهلهم عنهم الرياح، وماراك تواعم الكلام، و(احتمل مائة الزمن في انتظار خير الولد)

فازدرد "أبو عبد الله" مع "حمزة" الغصة نبت سبية: سباباً لم يخرجه من صدره، وتوضأ، وصلى العشاء، وسجد سجود السهو، ولعن "الوسواس الخناس"، وطوى سجادته.. ثم التف

بالغضاء في مكان ناء، وعلى عدد من دعوات من فمن لسوم في اسمر أطبق جفنيه ونام.

* * *

انجرد عن شعبان" شهره، ودفع بالصوم "رمضان".. فيه حسير الأجر، وضعف حسنة، وفيه "عمرة" بثوابها كمن نال مغفرة الحج. قال "أبو عبد الله" في حضرة زوجته، من بعد إفطار يوم رمضاني في العشر الأواخر من الشهر الفضيل: أظن مثلي لا يضيع حالة هُيئت له مع الولد والسيارة: (عمري "يا الله، حُسن الخاتمة" البياض في يفتنث بكل سوداء، ولبس لآمن الأيام أمان، غداً مع الفجر نحزم لتبة بعد "السحور" وركعتي الصبح، ونوجه عزيمتنا بإذن الله.. إلى بيت الله.. نطوف ونسعى، ونشرب من ماء زمزم" وندعو الله بدعوات فيهن طلب الصلاح للولد، واسترادة طيّب الخير، والمغفرة من كل ذنب على الإنسان قترفه؛ بقصد أو بدون قصد).

رأت الزوجة في رأي شيبتها الخير، ومتى كانت لا ترى في رأيه الرأي، ولو في معصية.. فكيف في دعوة إلى مرضاة الرب؟ وفيها الفسحة والأجر؟ ونفس المدن الخارة البعيدة؟!.

* * *

سمعت هجعة القرى في الليل "مدفع السحور"؛ من مركز سوق القديم، وكان "أبو عبد الله" منذ بلغ الشهر عشرته الأخيرة؛

يؤدي بخشوع صلاة التراويح" فأوتر الليل وتسمت" ونام مبتهجاً بذكر الله ونزعته في صيف الأجر والجزاء.

وعندما أيقظته على الموعد "أم عبد الله".. قام على جهد ركبتين تنوءان بطاقة أوجاعهما وعلى نفس مثقلة بالنعاس ونفاد الشهية، وتبلغ لقيمات السحور، مع الزوجة والولد.

كان عليهم أن يودعوا نفر الأسرة من الأطفال.. عند حاضنهم في القرية القريبة.. وعلى مضض العاجل المتعب أيضاً.

خلف صلاة الصبح .. ركبوا في "وداعة الله" سيارتهم، ولم تفتح شمس النهار عينيها؛ إلا وهم في مقطع من الطريق الأسود الطويل.

كانوا صامتين، وكان لكل منهم صراع مع خواطره في جهامة الأسفلت أمامه، وكان "عبد الله" قد تململ في السكون المسكون بهدير السيارة، فحرك بإصبعه مفتاح الراديو، الذي بث كلاماً لم يكن يعني أبويه في شيء، لكنه كان يهلهل بركود مثقل بالسحام، ورائحة الأفواه الصائمة.

* * *

والدان، وابن اسمه "عبد الله".. أدوا واجب العمرة، وطافوا بالبيت، وسعوا، وشربوا من ماء "زمزم" حتى فاضوا بالارتواء. ودعوا الله بكل الدعاء في السر والعلانية، وعمرت نفوسهم بالرضى، وبقي أن يغضن التعب بحنايا الشوق، ليستروا لأصحابهم ما يرضي نفس الطفل المنتظر. ورغبت الزوجة في حمل

"حتى يكون البلاستيك لمعاً تماء زمزم.. فساعة، وبقي أن يسهلوا مسيرتهم إلى حيث جاءوا.

في الطريق الأسود الضيق.. كان بين يدعم سواده على السواد، وبين عمضة عين وانتباهتها.. يسطع في العين نور سيارة قادم.. فيخطف بصر السائق، ويبتر جبرة "عتميم".

وحينما حانت اللحظة لفصل؛ تقاربت شعاعان، فعميت العيون، وضربت قوة حديد في الحديد.

* * *

أذن ظهر اليوم التالي؛ على جماعة كثيرين، ونساء كالعرسان بالعباءات يتجمعن في الغرفة الداخلية.. بينما كان إلى حافة الجدار جثتان مسجيتان، قد غسلتا وهيئتا للدفن.

أما "عبد الله" فقد طفأ دمه بعد أيام ثلاثة؛ بقسم طوارئ بمستشفى كبير، له نوافذ زجاجية عالية، وأشجار سهامية صامتة قديمة يخلفها المغدورون إلى الجنوب حين يعودون من قراهم.

جدة ـــ ١٩٩١/٨/٧

تأتيك نجري

ومع حتلاط لون لأيام اكتسبت لأصابع لعشـــرة بقســاوة احجر، وسحت حصوط لكف، وترصّعت مقـــام المصمـــات الخروج، فتلك كسوتها من احمد مر ـــ.. وحدت "كويــت" الشمس على الصدر مشبوب أشد كحدة الصس: لا بــت ولا لين.

أما وإن بنّاء الحجر والمطرقة ولسيح: سعد يقضـــي أغلـــب كارات السة بين صحور المقطعة؛ يهدها ويرصمها بعضاً فـــوق بعض، لتعلو مداميك جدر ن مستوية؛ قد أخلى عـــن مســـه مهمات الزرع وحصد سملية لخمسة عيال؛ تكـــرهم اليمـــ وتصعرهم أحسها، فهو لا يسأل عن الخصر ء ولا عن الصفـــر ء، إلا وقت كيلها بعد الحصاد وحشوها في لأكيس.

* * *

شكت "عزّة" إلى عزيز الفسب "سعد". وقالت (يا راعي الدار ـــ، ستك تام وصحو بوجعه، وتمطط النَّفس الجريح، وسدهر ويئـــح أنيها ولا تقوى.. تعال خذها إلى طبيب يحكّـــم فيـــه الصـــر العليل.. علها ترى من بعد مرضٍ العافية).

وكانت المعلولة تجتر مع نفسها المسلوب جرعات الدم، وتفقده عبى ستحيه في الأركان والخرق البسية، تعسر ركبتها ـــــاهو، وعبي لقدمين المتعبين تحرجر الحصى لتســاعد لأم في هــافت الحياة.

أمسك الأب باليد القاسية حينه بقصيرة الهابطة، وبعينين تر ستين سكبهما نحو المريضة؛ سرح يسوّر عن شأن يصبح ـــه الحـــال، فقال: (هيا، احملها على كتفك و احملها عشر مرة إلى فــــلان الحكيم)، وكان مفرّج الكروب عسى لسبب يرتع من ه الوقـــت، وتزيد الأم عند آخر القول: يا معافي .

وضع الطبيب على اعلّه عين الفحص، وثرثر بكلام خير ما فيـــه أن البنت تحمل الصدر المدقّي بالسر، وقد حلقما عجــز عـــن توضيح "المرض الرئوي" وأعطاها الدواء، فحمـــلاه وجرّعـــاه للعليلة على الوصف.

* * *

في الآتية ما بعد الثانية، قال الطبيب: (كُتِبَ لابنتكمـــا بعمـــر) وفَرَّكَ يديه الفارعتين، وكان "سعد" يتصنع إلى أيامه، فيجدهـــا بابنته مشغولة عن العمر فيقول كما يقول المصاب الحتســـب: لا حول ولا قوة... .

وحين كانت الشمس توسع حدقتها وتقصر بلهيبها على رجـــل وامرأة، يتناوبان في حمل صبية مغلولة، على مسافة ســـاعة مـــن مكان الطبيب؛ كانت المغلولة تقذف من فمها الـــدم، وتـــئن بصوت محموم، فنهضت الأم "شرشفاً" أبيض وتنبه لتتســـاوي على رأس الصغير.

وكان لأب يتقدمهما نصير مهمر "فرار" كاشف، تهبته الشمس فصب عليه الحسد.

حلفت "عزة" على لست المريضة باليمين لتي لا راد لها، أن تأكل التمرات التي وضعتها منقاة هي في الصحن الصغير، وسكبت على مهل في الفنجان الأبيض حتى فاض بالقهوة المهرة، ورفعته بعناية قبل الأم إن يشتهيه، وقال الأب في تذمر: "إن القهوة بالخرنين لا تصلح للمرضى الصغار، فاحتارت بين قول وفعل تصارعا فوق اختيارها".

* * *

كان النهار يطل رطباً ومضيئاً، وكان هدوء يسمع فيه طنين الذباب يرتض في جوانب الدار، وكانت صبية تشارف التسع، تدعك الأرضة الترابية بمكنسة من لقش، وعلى العتبة صغيتان وطفل يلهون بشيء في أيديهم، ويصيح واحد، فترفع الصبية جذعها، وتتجه عدمة الأطفال لتصلح شأنهم.

وكانت امرأة متوسطة القامة والعمر، تشد وسطها بحزام مبروم من القماش، فيرفع ثوبها الأحمر المشجر من أسفل القدمين، و يبين على مضض طوق سروال المطرز.. تدخل متحطة الأطفال، وبين ذراعيها حزمة من حطب الجاف، تلقيه بجانب "منقب النار، فأحدثت رضمة قوية، وجاءت بن صبية،

وهبت أمكنسة من يدها وهي تقول: تعالي.. بـــنت تحتـــاجين لراحة، وترد الصبية: (أنا بخير يا أمي. اتركيني أساعدك).
كان ضحى أول الـــــنهار يستحث أهل الدار إلى أكل وجبة الفول، وكان "الفاب" يتورم على هيئة "خبزة" من خلطة بالخميرة في مكان المشت.
بين هذه الفتافيت صاح رضيعٌ بحدّة من المفاجأة لرمادية قـــرب النافذة الصغيرة، فأهملت الأم كل ما في يديها و اتجـــهت نحوه على عجل.

* * *

قال صاحب البناء للبنّاء: إنك يا "سعد" بالحق تريد أجرتـــك، ولكن، هاك بعضاً منها. والبعض سأعطيك بـــدلاً عـــنه هـــذا "المذياع"، وكان المذياع نور صغير أخضر، ويعمل بالبطاريـــة الكبيرة، وله أسلاك تمدد على سطح الدار فيبين المسامع، ويحلـــو في العين، غير أن "سعد" يريد أجرته بالريالات. تمســـح حالـــه، وتمسكت يد الطبيب، وعلى كثير من حياء أخذ المذياع ومضى.
حين مع الصندوق أمسك بالنور الأخضر الصغير، كان الأطفال والأم يتململون كأصابع الكف من بعد عشاء مزدين بالفرحـــة، ومدججين بوهر السؤال الذي لا يلقى من جواب إلا نفيين.
كان "سعد" يجاهد في القبض على الابتهاج مدعـــم بارتقـــاء صحة معنوية، وكان لا يسرق هذا الابتهاج غير يد الطبيب.

وبين عمضتة وعشيتها، جاء من جمس "المديع" بأسلاكه معلقة تخور على السطح. تساءل الأطفال، وعلى عض مدفون، سكتت الأم وتجاهل الأب.

* * *

قال "سعد" في حضرته انفراد مع "عزة" معاتباً تدهور الأمور: "تفو عليك دنيا". وسألت على حسر الزوجة المستعرية زوجها، فأجاب:

(أخوات فلان يطالبنه باقتسام الإرث، وأوضح طيبة فلان ذاك وعجزه وقته السود والمال في يده).

إنه لا يستبعد في دنيا هذه الأيام، أن تأتي الصامتة المتزوجة من الأخوات، فتمعن ما فعلته فلانة.

وذكر أن الأرض التي كانت تملأ العين بالزرع البارحة، أصبحت بلا ثمن، وأصبح للسمح أعلى، حيث يقتطعه خط مرصوف من قرن البسية، ويعطي عنه معوضاً "غالياً في الثمن.. فتسهت إلى المال القلوب الغافلة.

وأن فلاناً قبض من الريالات ما يعجز عن استيعابه، في سمح قرب أرضه الزراعية، لا يسمن ولا يغني من جوع، فاشترى لولده الوحيد سيارة جديدة، وبنى بيتاً كبيراً بالطوب والأسمنت، فأما السيارة فقضت على الوحيد في ذات حادث، وعجنت جسمه بحديدها، وأما بيت الأسمنت الكبير، فقد فرغ من ساكنيه و ها

إنه بعد موت زوجته، وبعد عجزه عن القيام، ينفق باقي العمر، ويشكو من برد جدران "الإسمنت" في الصيف والشتاء.. يذكر أيام الحرث بالثيران والسقي بالحيرة، ويصفو كما يكف على ماض كان القوم جميعاً فيه يزرعون ويحصدون ويتعاونون. واليوم لا محيب ولا زائر للداء ووحدة القاعد والعاجز والرد: (فتعرف الدنيا بأمورها.. تمو يا دنيا).

* * *

لملمت الشمس آخر أرديتها الحمراء من بعد صفرة، ونمت "عزة" دجاجاتها، وأغلقت في مرابطه الخلان؛ وخرجت الصبية تسدور على الحمارة، وعادت وقت إذ سقطت في الظلام خلف الجبل الشمس، وقالت للأب العائد إلى الدار، حين مشى بالخير على عزة"، أنها وطئت ببطن القدمين على الشوك والحجارة المتناثرة في غير الطريق؛ تدور على الحمارة، ولم تجد لها مكان حفر.
فخرج الأب في غُسالة الشمس النائمة منذ وقت قصير، ودوّر عن الحمارة الضائعة. "فأين شردت تلك جنيّة؟".
(اسمع قوي يا أبا فلان.. اذهب إلى الفقيه، واسأله عن حمارتنا الضائعة؛ عله يهديك بعلمه ومعرفته).

وحينما سقط عنى حرقة أمر حمارته على الفقيه قال: عمـــمتك، وخمسين من الريالات.. سأقرأ عليها المعوذات، وتأتيك حمارتك تجري مع الفجر).

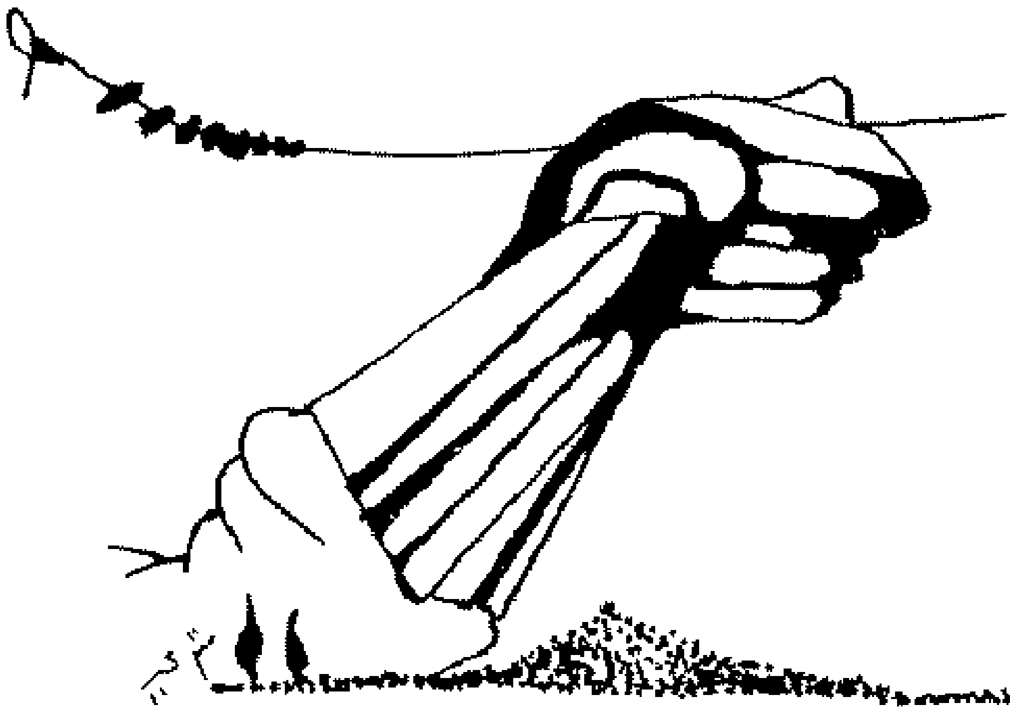
وحين جاء مع الفجر، ولم تأت الحمارة؛ قال "سعد" وهو يدق صدره اليابس:

"حسبي الله" ذهبت الحمارة، وذهبت الريالات؛ وسأذهب استرد ولو بعد خصامٍ عمامتي.

كانت "غرة" تقعد القرفصاء إلى جانب "سعد" وتمســـح عينيـــها وعاينتها لفنجان القهوة الذي ملأته حتى النصـــف لأبي عيالهـــا، وكانت الصبية تقرع في أول محاسية جدّ قليلة قرب "المنسى"،أما الأطفال الذين هدأوا بعد شغب قليل، فقـــد انشـــغلوا بشـــيء يأكلونه في أيديهم، وكان رد "سعد" على كلام جاء على هيئـــة سؤال من "غرة" عن تحديد الوقت الذي سيتوي فيـــه تســـجيل الأطفال في المدرسة: "قريب، حالما يخلـــص الشـــهر و تبـــدأ الدراسة في المدارس .

١٩٨٩م ـــ الدمام

بالمشعاب



لم يسلم مكان صغر فيه العشب والكلأ؛ من فعل ما تفعله الشـــاة في الحضيرة تحت الفريص والصفصف، فـــاتر عن الفـــوى المعـــاند صاحب البيت المعائش بالصوف والروث والجلود؛ يحب "حلاله" كما يحب عياله، ويدفع عنه النايبة والمشعاب، ويسحب همتــــه المشهورة في القوم من واد إلى مسقى، ويخشى سطوة ...... فيه؛ السعيد قبل القريب، وإذا ما أوشكت المتردية أو النطيحـــة علــى الفوات؛ تردد في حدّ سكينه وذهب يمرّر "نصلها" على كـــره في الرقبة التي (قضى الله عليها أمراً كان مفعولا).

وها أن برق "حبيبته" المعقوفة يلمع في وجه ابنه الذي أهمل عنوة يوما الغنم؛ فعض ناب الذئب فخذ المتحفّفة حتف القصيع فالوت من عيال البيت، وعيال البيت يتشهّون اللحم والمرق، وســكين الأب لا تجرؤ على طعم الدم، وخيبة الابن ليست أقوى من الحاجة. قـــال لسان الغنم "عايض الصحري" لإهمال الابن المتعمد:

"طيب يا سايب.. والله لو لحقتك لأروي حسيّتي من دمك".

خاف قلب الابن وهبّت ساقاه تستجدي الفرار، وقـــالت الأم للأب المعمد في القول بالحنان:

"ولدي يضيع تحت العصب من أجل شاة".

تفصّت مشية الشاة حتى كاد يأكلها السبع، ورأى عيال البيت أن تذبح، وخرجت لوعة الصوت، وقال من لم يأسر لوجع قلب الحزين:

هذا رحّال نجيب، يسمي شياه قطيعه، كل عنيزةٍ باسم.

وما ظلم لسان لتسمين، فقد كان يسمي كل ذي ثغاء في القطيع المترامي باسم: فيدعو هذه "مبروكة"، وهذه "خيرة"، وتلك "هيبة" وحين تستريح في قيلولة النهار أمام البيت، وتجترّ غذاء الرعي. لا يستريح، يتفقد بين أصواتها: فيجر بعضها، ويمسح البعض من حسكٍ أرقوه.

*　　*　　*

سلم الولد من عصب المحفلة، وسرقت السكين "مشاهد" رقبته من عصر التسع فحدها، وقال أهل البيت حينما أكلوا لحمهم، وشربوا المرق "الحمد لله، شبعنا من خير حلالنا".

وتأهب "عايض الصحري": يغسل كفيه وشاربيه من الإبريق في الساحة ويقضي حاجة تؤرق منامه، يتدثر جبّة الصوف ويعصر في الهدأة والسنات خاصرته وعينيه.

ووقت إذ تمّ سافيه لتحيتين القهويتين تحت أطراف جبته؛ سمع مناديا من الساحة فمرّ على قدرٍ حثيث، وفتح الباب، كانت ظلمة ما بعد العشاء لا تدع للناظر أن يتحقق من طرف يده، ورد كالعادة صاحبُ الدار الذي كان في أمن وسكون النائم الشبعان: "أهلاً الله.. أقلط".

وكانت حداؤه محسة تمرقع في لادب؛ وقفط من ساب مصف مفتوح، وبدون دعوة قعد، وعلى الفور قال:

"اسمع يا عايض الصحري، ما جئت أشرب قهوتك في بعض اسين.. الجماعة أرسلوني أحدثك".

"خير إن شاء الله".. مم تحدثني في مثل هذا الوقت؟

كل من عنده قطيع.. أرسله للبدو، بعيد عن الزرعة.. إن موعد الحصاد، وأنت المرد المعاند.

ألقى عايض الصحري جبته ونهض إلى الداخل في عجل، ثم عاد وفي يده مشعابه وقعد، قال وهو يضرب به ضربة ثقيلة على فرش العرفة:

- "روح للجماعة.. قل لهم، حلالي أغلى من عيالي".

وعلى شار من القول اللائق في مثل هذه الحال، راح الرسول يهمهم ويهوم، ويطلب لنفسه في سريرة من الله الستر، ووقاية الرعب، وقال:

بكرة النهار يا صاحب، تحتاج جماعتك؛ فلا تلقاهم".

أضاف

- "اسمع قولي"

وبضربة كادت تجمع راس المشعاب قال ثانية:

"قلت لك، حلالي أغلى عندي من عيالي.. هيا، إمش.

و.. سرى، فكاد يقصم سنانه وفي لسان انكسر مُجتث.

* * *

كبر لوسه، وهرمت لشدة اني كنت أغنى من عيـــــال، فمــات
بعض، وضاع بعض، والبعض امتدت عينيه الى حاجة فحشرجت
وقت بيعها الريالات. غير أن بعضاً في القطيع نقي يسحب "همــــا"
صغيرا، فيملأ العين مع الزمن ويملأ الخاطر، وقالت لزوجـه، وقـد
خلت الدار من العيال:
أشقيت نفسك، وخفّتْ قدماك، وشاب حتى شعر صـــدرك.. لا
حاجة، ولا مقدرة لك على الرعي.
التفت "عايض الصخري" إلى وجه زوجته، وقال بالقول القاسي:
– "أقول لك.. نسيتي؟ إن حلالي عندي أغلى من عيالي".
وذكرته على حين غرّة:
– وأنت نسيت أن القطيع سبب قطيعتك عن جماعة، أيقظت
دواخله، فالجماعة ذات ليلة بعثوا مرسولاً يخبره، وكل ذي غنم
وقت الـــــزرع، يودعها عند البدو إلى ما بعد الحصـــاد، وأن
رأسه القاسي، ومشعره "سعيد" أبا عنيه"، فقال:
– طيب، تقدرين تقولين لي: كيـــف نعيش؟ الأولاد كبروا و
تزوجوا، والبنات حقوقهم، والأحفاد أفتحوا المدارس.. لا رعي، ولا
من يرد.

ولم ترد الزوجة، فردّ الزوج أخفض بصرها، فمضت تستعين بالله على الساحل لتسأل لابد أن توقيته كان ملائماً، وبعد غياب قصير جاءت وفي يديها القهوة المهيّئة والتمر.

* * *

على منحدر سفح خفيض في واجهة الوادي؛ كانت غنيمات قليلة تسرح في تيه حذر ما بين أفواهها وعصا الراعي، وكان رجل مسن في أرذل العمر، على استكانة غامضة يتدثر بجبّة صوف بيضاء يحدّث خاطره:

(اليوم، يا عايض الصحري؛ تدور عليك، وعلى "حلالك" الأيام، فتبقيك تحت قبعتك شعراً أبيض، وعصاً واهناً، وعدداً قليلاً تبقى من الشياه، وعصى لا نفع لها، وأبناءً فرقتهم السبل، وزوجة لا تنفك عن وهنك وهنا، وجماعة تنفر أغلبهم عن صبغك الصب. وسحاباً لا يمطر، وأرضاً تعصي ثمر جهدها. أناس يتصولون في الماء وسيارات والزخرفة.. فعن:

(ما بقي إلا أنا من الناس ما حا لي معاش".

* * *

كان همّ المصدر يلبس كل حاضر فيه، وكانت شمس الجبال القروية؛ تغيب وتظهر، ثم تختفي وتبين، فتبدو الصخور والأشجار القليلة الخضرة والأغنام؛ ظاهرة في العين وما هي بظاهرة.

وكانت السحابات في السماء المتعبرة: تتجمع على هيئة قفص المحطّم وتتركم.. ثم اهتز القلب قارع مع أول صعقة برق ما سـت "عايض الصحري" إذ ساق غنيماته نحو بيت خوفٌ من تحرق، حينها صاح باللسان احد مستحثاً الغنم ممتلئاً بالحبور.

٣٠، ٥، ٨٩ ـــ الدمام

الخرج

برائحة تخرج لدى تمثلي تمفاصي سوق، وتحمه حمره مع غسل استايب: مرة كل أسبوع.. صعمٌ في الأنف مفردٌ لا يمكن لرائحة غيرها أن تكون مكانه. لعل في رائحة دكان مقربة لصغير الوحيد: ما يذكّر بها، لكنها ليست كمثلها. فقد كانت تبقى في الحرج، وفي الأنف، وفي الصدر.

واليوم..

لك يا صبي الثامنة أو ما يزيد قليلاً، أن تجهز ثوبك والحذاء، وتثبت المشاك في حقك. سيجمع بين المرح فتحتي الرقبة، أو من حافتي فتحة الثوب من وسط الصدر إلى الرقبة، وستأخذ مكانك مردفاً على ظهر الحمارة خلف الشيخ.

* * *

كانت الحمارة تقرع بحوافرها في حجارة الطريق، وكانت الطريق الملتوية كحبل المهمل؛ تبدو بعيدة وطويلة، وكان الصبي يمنّي نفسه لو يعرف نهايتها، فأين نهاية سقطع عندها هذا الحبل لبعيد؟!.

جاءت من أعلى الجبل، ومن سفوح كثيرة، وبلاد لا زرعة فيها، وقطعت نهيراً صغيراً فيه ذؤابات ماء مطحلبة، ونباتات الحق الخضراء العالقة، وصخور على الجانبين كبيرة وصغيرة ملساء كالبيض.

هناك أشجار كبيرة كالوحوش، وفي كل مسافة وأخرى، تقفز طيور "السمان"، و"القمري"، وتطير فتأخذ معها النصر إلى أن تختفي أو تهبط على الأرض.

أما هو، فها إنه يهبط إلى السوق، كما لو أنه سيرى ما لا يراه إلا هو.

رأى رجالاً ونساءً، بعضهم على حميرهم، وبعضهم على الأقدام، بعضهم يبرم بيده رسناً صغيراً من سعف النخيل، وآخرون يمسكون بالعصا أو المشعاب. وكلما اقتربوا من السوق ترابسوا.

كانت المساحة المحدودة بالأشجار من طرفيها، والخال من الطرف الخلفي، تنبسط في واجهة البيوت المتدحرجة بيضاء، والعاوية الحجر. كانت تلك الأشجار المتقافزة قرب جذوع بعضها، تخسح ظلالاً تُربط تحته الحمير.

تحت واحدة، ربط الشايب الحمارة، أخذ عن ظهرها خرج الفارغ، وخلفه مشى الصبي، كان يتبعه، وكانت حواس رأسه الصغير تتصرف مع كل الألوان والأصوات والروائح.

دخل الشايب دكاناً، وسلم على صاحبه، ومد صاحب الدكان إصبعين من يده، والتقط قطعتين ملونتين من الحلوى، فناولهما للصبي، ونطحت رائحة نادرة مختة أنف الصبي. كان الدكان لا يشبه دكان القرية الصغير، إلا في أشياء لا تقف عيناه عندها.. فهذه قد رآها، وبات يعرف أنهم يسمونها نكد، ويستخدمونها نكداً، أما

تلك الأشياء المصفوفة كالعرائس، وتلك التي كحب الرمان الكبير، والراكدة في الركن كالسهام المضيئة؛ هكذا جديدة على معرفته، ولا يدري ماذا يشتريه الناس.

* * *

قال الشايب لصاحب الدكان: وهو يناوله خرج، سيطوف بالسوق ويجيء يضع حوائجه و.. خرج.

يا إله الأطفال و الأسواق..

ماذا هذه الروائح المختلطة النادرة؛ لا تكون إلا في الخرج، أو في السوق؟!.

كان الناس يضجون في كل شبر، وتختلط في اليمين و اليسار، وعلى الأرض نساء، و رجال يبيعون، ويتحدثون، وآخرون يرفعون أصواتهم ينادون إلى سلعهم.

صفاً أمام الصف.. وقدامهم بضائعهم، وبينهم و بين بعض يتخطى المتسوقون، و يقصدون مقاصديهم.

الآن..

عرف من أين يجيء الشايب بالخوخ والرمان.. من هنا، من ذلك

ابن الصغير أمام ذلك الرجل المتربع.

ومن عند هذا الواقف أمام معاليق العذوق الحمراء.. يشتري الشايب البلح. أما ذلك القاعد وأمامه بدية المدهونين بالسود، أباريق واسعة

العلون، وقرناً تكاد تنفجر بالمهن. فهو لا ريب بيـــــع فقطـــر ..، فرائحته لا تفارق الأنف.

يقرب أوانيه المصفوفة. رجل هرم العينين واليدين، تمـــددت قدامـــه العصي و الشاعب مهملة.. بارب: أليس فيها منتـــعات واحـــدة صغيرة تصون ذراع الصبي؟.

رأى الصبي في السوق ما لم تره من قبـــل عينـــاه، ولا أدنـــاه، ولا معارف الحس في رأسه، ولا صدره. فأينما يممت يرى شيئاً جديداً، أو يرى أشياء يعرف لحظتها أنها تجيء من هنا. ولم تكن البضـــائع الملونة والخاصيص والروائح، وطعم الحلوى المعسلة الذي أبى أن يمحى من اللسان.. هي التي ملأت فيه كل استيعاب، بل إنه شاهد أناســـاً آخرين بألوان غير التي يعرفها، وأصول مختلفة، وعمود ولحى قصـــيرة وطويلة.

وعندما درج الشيب إلى فســـحة صغـــيرة، يشـــتري "الريحـــان، والشار". والليمون الحامض و حلو، بين يدي نساء كبيرات العمـــر وصغيرات، وقد وضعن جانبهن قفافاً صغيرة. تكاد تنفـــر حوافـــها بورق أخضر ميتس من الحناء.. كورق السدر الجاف.. رأى الصـــبي مجمعاً يترع بأصوات الخلق والحلال، ففيه جمال وأبقار وحمير كثيرة، وقربها أغنام وماعز.

لقد رأى حتى الدجاج والبيض و البرسيم. حبـــوب ركـــب لســـاء القاعدات.

* * *

قال الصبي للشايب، ولسانه يجف في فمه: إنه يريد أن يشرب فدعاه الشايب برفق لم يعتد إلى صنبور قصير ملتو الرأس، يخرج من صفحة تلك أسطوانية واقعة قرب باب مسجد أكبر من الذي في قريتهم، فشرب وغسل وجهه ويديه.

كان الشايب يجمع مقاضيه وحوائجه، ويحبسها إلى ذلك الدكان الذي دخلاه أول مرة، وكان الصبي يحمل معه فوق ما يقدر عليه، ويمشي خلفه، فيراه مختلفاً عن كل هؤلاء الأوادم، بخطواته المسرولة العريضة، وقامته الشامخة بعظمه السني، وحذائه الجديد النظيفة، وثيابه المتناسقة البيضاء، وعقاله الذي يضم عمامته المجنحة فوق رأسه. أما عصاه الخيزران ذات الرأس المكور؛ فأنها بنحافتها وطولها المعتدل، قلّ أن يشاهد شبيهاً لها في أيدي الآخرين

كان يقابل رجالاً كثيرين، فيسلّم عليهم، ويبتسمون، ويفحون الصبي بكلمات مرحة وممازحة. وكان بعضهم يعطيه في يده شيئاً ما. فقد قعد بعد عودته من السوق؛ في البيت بين أخوته الصغار وبنتي وولد الجار، وأخرج تفاحة و موزتين، وثلاث قطع من الحلوى المغلفة، وما يملأ القصبة الكبيرة من الفستق. وأعطته تلك التي تبيع الريحان والحناء؛ ليموية صفراء كبيرة طعم السكر.

وراح يوزعها بين الجميع، كما يفعل الشايب وسط العيال، وعرف حتى آخر إمكانيات الوصف، لينقل لهم ما سمع وما رأى، وما سوف يبقى في رأسه وصدره إلى حيث لا يعلم.

بقي إلى الليل لم يأكل، فبعد أن صعد الشايب من السوق، وأخرج من الخرج الذي لم تعد رائحته غريبة المصدر على فهم الصبي، وقسّم قسمته العادية بين أهل البيت، من الصغيرة والكبيرة.

وعدما خلع معطفه، وعلّق إلى الجدار عقاله وعمامته، وترك خيزرانته – التي لا يجرؤ على التقاطها من تحدثه نفسه – وضعوا العشاء.

لم يتعشَّ الصبي. ليس لأنه شبع بعينيه وأذنيه وأنفه، بل لأنه بقي أياماً يشكو من وجع في البطن؛ وقت الظهيرة، وحيناً من السنين، وأحلاماً في النومات الساخنة؛ حين يتذكر ساعة إذْ أوشك الشايب أن يشد الخرج على ظهر الحمارة، ليعودا إلى البيت، فرأى الناس يتجمعون حول ساحة ذلك المسجد الذي شرب من مائه، وقد جاء رجال، قال عنهم الشايب إنهم عساكر، وكان معهم رجل مكتوف اليدين،أقعدوه على عجيزته، وتقدم منه رجل ضخم كالليل.

١٩ / ١٠ / ١٩٩٠م ـــ الدمام

الغطاريف



عندما عاد حمود المزوغي من السفر، مثلما يعود أبناء القوم في الصيف؛ وقتما يشتد بهم الحر في المدن.. حمل معه شنطة كبيرة من الصفيح المدهون وعلى واجهة غطائها قفل نحاسي ثقيل بمفتاح يحمله في الجيب.

وحين تجمعت عيون أهل البيت، في يديه ثنتين اشتغلتا بالحركة في محتويات الشنطة.. أخرج عمامة بيضاء مغلفة بالبلاستيك الشفاف، وعقالاً عريضاً مجدول معدني كالقرش الجديد. وقال وهو يقدمه لأبيه:

- هدي.. هديتك، يا بوحمود.

أرسل يده في قاع الشنطة، ورفعها ممسكة بشرشف مطوي كالكتاب، وعلبة كالكف من حبوب "المبيد" لقتل العثة، ومدّ بها إلى العجوز [illegible] اللاهية بالدعاء، والكلام الذي لم ينتبه إليه أحد، وقال:

- هديتك.. يا أم حمود.

وأعطى أخته الصبية الصامتة، منديلاً أحمر، "جعجع" في علاقته المختومة. أخرج صدقيتين ملونتين، ومطرزتين بالقصب المكسّر، ووضعهما على رأسي أخويه، اللذين ملأا الحجرة بالصخب.

ثم، أعاد الغطاء، وأقفله بالقفل، ووضع مفتاحه في الجيب. أما قطعة القماش السوداء "القطيفة"، والشرشف الكبير الأبيض، ومنديل، وزجاجة عطر باريسية زرقاء، وفستاناً، شيلة بلون الفحم، ودهان

كرعي مستدير.. فتنت أشياء تسى لأن نكون في بيد؛ وقمنا بسهود جمعاً إلى بيت لعروس.

* * *

بعدما وصع الأب أعي زيان، وتحدث عن الصيف المرتقب. لم يتحدث "حمود" إلا إذا سئل عن المدينة وأخبارها، فيرد بكلام قليل. وكأنه يُعتّ الكلمات، فيفرك يديه في بطن بعضهما، وينظر في وجه أبيه، كأنه يستأذنه.

كانت حسنه" في لداخل مع نساء القبلات.. تكتم الحركة، وتبدر كل ما يمكن أن تستحسنه قُدّام أم حمود وبنتها.

وكانت أمها وعمتها يدفعنها بعيونهن، تتقدم القهوة وتستدي وفيب القول، يعطلان لصحتُ أو لغط المتنين.

قدمت أم حمود ما جاءت به العريس من هدايا، وصعتها قدم حسنة" سيئاً فشيئاً، وهي تقول "تبّس العافية يا عروسنا".

* * *

بعد ساعات من الليل قام الجميع إلى دارهم.

كان أبو حمود يعمل بنّاءً في الحجر، قضى نصف عمره في تهديب الحجارة، ووصعها فوق المداميك، وقد ظهرت على يديه خراشف دقيقة قاسية، كست راحتيه بو جهة بيضاء متشقفة. وهو لا يعرف إلا الحجر والمطرقة، ولا يحب أن يعانده في الأمر رأس صلب. وكان لا يقبل أن يرى لأشياء تخرج عن طمها ، حتى إنك ترى

حيته المهدبة.. مستقيمة الحواف، متلائمة مع شربيه المتقفين بجلي الوجه، ومتصالحين إلى حد عجيب مع عينيه العسليتين النصف مغمضتين، وأنفه الذي ترحي بين وجنتيه المهدبتين لاستقبال سنوات ما بعد الخمسين.

وتلك صفة تحور عنها عائلة "آل مروي" منذ أجيال. فهم يقولون إنهم لا يحرقون دمهم في هموم الدنيا، فابن آدم لا يحق له أن يحمل الدنيا على رأسه، والأرض أحمل بكل ثقل.

وعليه فإن الأب يوصي إبنه، الذي يعمل دلالاً في حراج المدينة، بعدم حرق دمه. (فاليوم لك، وغداً عليك، والرزق من عند الله).

* * *

في البيت الذي يسكنه "آل المروي"، والذي توجد به حجرتان، إحداهما كبيرة للجلوس واستقبال الضيف، وتناول الطعام على سفرة من خوص السعف؛ يتم نفضها وتعليقها في وتد على جدار الموجه للداخل.

على لصق المجلس حجرة داخلية تصغر قليلاً، بها "متكت" النار، وأواني المطبخ، وأكياس الحبّ هناك في الركن المقابل.. اقتطعت مساحة مربعة كصندوق الشاي، بألواح رقيقة، بها باب يقفل يتدلى كالستار، وبدون نافذة.. للعروس القادمة، فرشت بحصيرة جديدة؛ لا تزال تحافظ على لُحمتها كالورقة المرسومة، وعليها بساط مخطط

بالأزرق والأحمر من القطن، جاء به "حمود" من السفر. أما الصبيين وأختهما فكانوا ينامون في حجرة المجلس، وينام الأب والأم في الحجرة التي في ركنها سدم العروس.

وقالت الأم لبكرها القادم على الزواج:

- "بكرة.. ستأخذك مني، هذا ما يبقى لي؟ بعد تربيتي.. هذا حال الدنيا"

كان "حمود" يربت على كتفها ويقول:

"لا، لا.. إنتي الخير والبركة، يا أم حمود".

كان الصبيان يحتذيان بصافيتيهما الحديدتين، ويحدثان صخباً يشوِّش على مسامع القاعدين، فيدعوهما "حمود"، ويحشو في قفل شنطة الصفيح بمفتاحه الصغير، يخرج صرّة قماش بحجم الرأس الصغير، ويملأ قبضته بـ"الحمص". متمما فرحا به يوم أن قدم من السفر.

وكان الأب قد هبط إلى الأسواق، منذ الفجر، ليشتري ثوراً "ملّحماً".. يذبح ليلة الزفاف، ويشتري حوائج ينسى بعضاً منها، فنفثت العجوز في أذنيه كلاماً عتاباً (فهو لم يعد يتذكر وصاياها ..إنه بلا قلب). وسمتساً مبادلات شتائية، لا بد منها في مثل هذه الأمور، فيرد عليها كما يقول:

لا وجع إلا وجع الضروس، ولا همّ إلا همّ العروس".

* * *

انقضى يومان، أنفقهما "آل مروى" في التجهيز، من بنه حتى في صبيحة يوم الزفاف.. لم يجدوا وقتاً هنيئاً للساو وحتى المال والعدد، فقد عنيت الصبية شطليف لأوبي الكثيرة. حتى جمعوها من أهل القرية، وحتى حملت خطوط معوجة؛ أسماءهم على أقفيتها، تجمّعت كلها في ركن الساحة انطليفه، حيث أقيمت خيمة من القمح، وأُعد تحتها كانون كبيرة، وآخر يصغر عنه بقليل، وفوقهما قدران كبيران نحاسان، تحلقت حولهما ثقيلة.
صُفّت "مصابيح الأتاريك" كالعرائس أمام أحد الأقرباء، تولى تنظيفها وتعبئتها بالجاز، وإعداد فتائلها المعصوبة. وكانت تحمل أوسمتها في أسافلها فهذا للعلا، وذاك للفلاد.
كانت العجوز لا تفتأ تلبي مطالب زوجها الكثيرة. وقد شمر عن ساعديه، وساقه إلى الركنتين، ووقف مع العريس، ونفر من القرين؛ تحت لورة عالية أمام البيت، يسلخون جسد الثور، بعد أن مضت السكين الحادة في رقبته المترهلة كعمامة حامية. حيث خار، وجاهد لفك القيود من قوائمه، و.. تخبّط و صرخ و قاء الدم مندفع من كرّسه، التي ما لبث أن غار فيها خدّ وتعلق حتى المصاب.
تجمع صبيان كثيرون مع صبيي آل مروي وقذفوا المحدّث الجائمة فوق الساحة، بقطع صغيرة من لحم البهيمة، ذقو معها

شظايا الزجاج، وخطفتهم الحداءات، فكانوا يتصايحون فرحين بأنها ستأكلها وتموت.

وكانت القطط التي لم يكن أحد يتوقع وفرتها.. تتصارع بشراسة، وتلغ من الدم الذاهب إلى السواد فوق التراب، وجاءت العجوز والصبية إلى مكان سلخ الثور، فحملتا الرأس، والقوائم والكرشة والأمعاء، في قفة ودحتاها.. ستنظفانها وتدعكانها بالماء، ثم..

* * *

جاء أقارب "آل مروي" منذ الصباح، وحضرت أخت العريس المتزوجة، من قرية بعيدة، ومعها أطفالها الستة، الذين لا نشك في أنهم ولدوا في سنة واحدة، وعجّت الدار بالضجيج، ورمى الأب بكثير من عبارات الشتيمة على الأطفال. (فهم لا يدعون شيئاً في مكانه).

كان الغداء من الخبز واللحم المسلوق والمرق، على قدر الحضور، وانتشرت رائحة الدهن النافرة من ذرات الشحم واللحم النيئ المكوم في الصحون الكبيرة، فامتزجت بروائح الفرث والدم. قام اثنان بمهمة الطبخ، ودلقا كيساً ثقيلاً من الأرز الأمريكي في قدرين ضخمين، فكانت الحرة طبيخ بحدث الصحن الجائع واقترب أفول الشمس الذي اقترب به مجيء العروس.

كانت العروس، وهي لا تعد إلا نسمة تشمية العصص. قد تربت في بيت أبيها متوسط الحال. فهو بن جانب رواعته وحلاله كالاحرس . يفري جلود لقرب ويرتق حثوس الحمير وحطمتها وخروجها، ويتفحص حوافرها وأنسها.
وهو دقيق الملاحظة قليل الكلام، مهذب العبارة مع أهله والناس، حين يمشي لا تفوت عيناه السيور والحسوص، وقطع الحود والمسامير الصغيرة والحيق.
لم يشتك أحد منه، ولا من عائلته الهادئة، فنشأت بنته ذات الأربعة عشر، نشأة هادئة وخجولة.
وعلى أي حال.. فقد قال الناس، إنه ثوب، ورقعته منه .

* * *

"حسنة" لم تألف بعد ورمتي مصدر المستحي. وجمدت كقطعة الفحم المدلاة أمام وصايا أمها وعمتها، اللتان حوتاها بأرصن الكلام: (فالبنت الحرّة هي تلك التي تستسلم لعريسها، وتسمع صوتها، وتظهر في صبيحة يوم الأول كالذهبة النقيّة، فلا تدع لعين عتب، ولا لسان قول مشين، فيقولوا بنت فلان، كل النساء تزوجن صغيرات، ونحن أطفالاً، وتعلمن كيف يتعاملن منذ ليلة الزفاف مع أزواجهن).
وحينما أريق الحناء على الكفين، وسرحت أذيال لرأس الضفيرة السوداء وكحلت العينان الصغيرتان الذكيتان. تمضمضتا

بدمعهما الحامض والخوف والفرحة المكتومة. وأشياء أخرى لها طعم ولون اسم توحش وقعتها لا ريب.. ضربت الدفوف في أيدي النساء، وحلطت بالعطاريف، ومشين على أقدامهن، بعضهن يغني. يا لهلا لا له" خفف واحدة عرفت في القرية، نظم الغناء بالقصيد، ومشى كاندين الرفع أطفال من الأولاد والبنات.

وحيث أن بيت "آل مروي" ليس بعيد، إلا أن الرهة التي يقطع الماشي مساحتها في وقت لا يزيد عن الترحيب بالضيف، سيرهون عروسهم فيها مسافة بولغ في بطئها، كانوا يرحفون وكأنهم يتعلمون المشي، وظهرت العروس بوجهها المزدد بياضاً.. تحيط به "الشيلة" السوداء، معصوبة بمنديل؛ شد كالعقال، وصنع جميلاً في العين، كانت بثوب من القطيفة، مزين بالتطريز، حتى بدت عيناها كبيرتان أكبر من حجمهما.

لم يكن على وجهها زينة أخرى غير الكحل، وأدناه تختبئ تحت "النسة".

وكان أغلى ما تتحلى به، وربما كان رصيداً من عون في الأيام السود.. حزام بعرض الإصبعين من الفضة يبزم وسطها، أما اليدين فيزم معصميهما أساور من صغار الكهرمان الأسود المضوم، وحجلين فضيين، وخواتم لا تزيد عن الخمسة في الأصابع العشرة.

* * *

في بيت العريس وقف رجال، يستقبلون الرجال، ويرحبون بهم، وأطلق في سقف السماء بندقيته نصيب ثلاث طلقات.. مع أبو قفطون وابن "حمود" يحصي الرصاصات واحدة بعد صفقة سابقتها.

خرجت نساء من بيت "آل مروي" بالدفوف والمعازيف، ليستقبلن العروس، ويقدنها مع الزفة إلى الداخل.

وتناول الأولاد على قدر تحملهم مرتبة بسعة شخص عريض واحد، ولحاف صوف بحري راه، وطشت كبير، و"صستين"، وشنطة من الصفيح المذهب، وكيس صحين، و"عُكّة" سمن بحجم الرضيع وإبريقي وضوء معدنيين، وقربة.

ثم ولد العريس أولاداً كانوا يسقطون من أيديهم الخواتم الصغيرة، وتقدم فأحدهم، ودعاهم إلى الداخل مع الضيوف، وكان يلتفت في كل اتجاه وهو يحرك قدميه، ويحرك يديه، ويقذف بصوته الذي يبدو كأنه لم يجرع الماء منذ أسبوع.. بل انتزع حلقه كله، فقد صبح صبح يوم الثاني، وقد تغيرت معالمه، حتى أن السامع يتساءل إن كان صوت أبو حمود

كانت العجوز لا تهدأ كالنملة.. تدخل وتخرج و"تعوص" بقدميها المتورمتين، وخفيفتين من الانشغال، وفتحت قفل عينيها عشرات مرات، بل إنها في لحظة شدت فيها أعصابها.. ألقت بالمفتاح من

سبحة صغيرة في رقبتها من زوجها ذي الصوت المبحوح؛ وقالت إنها لم تعد تقدر على تلبية مطالب صاحبته الكثيرة. وجاء العريس لشأن مهم، فوجدها على هذه الحال. فقبل رأسها، وأعاد إلى سبحتها المفتاح. وكان الأب يتجرع كلاماً من الشتيمة، يجاهد لكي لا يخرجه كحجر فوق رأسها. فقد رأى أشياء كثيرة لا تناسب حدثه المبالغة في ضبط الأمور، واختلطت إزعاجات الأولاد ببكاء الأطفال، وبالضجيج الذي كان يأتي متواصلاً من مكان النساء، وبأصوات الرجال، وهموم أخرى تغيب قليلاً وتعود كالغيوم على صدره. لقد كان بحاجة إلى كلمة مهدئة طيبة من زوجته، فإذا بها تقسم خاطره بتصرفها المفتعل.

تركته واقفاً مع العريس في الساحة، ودخلت تنوء قدميها المتورمين، فانشغلت مع زحمة النساء، واستلمت قربة جديدة مطوية، جاءت مع جهاز العروس، و.. فتحت للمرة ربما الخمسين؛ ففل عينيها، وألقت بها فوق أشياء مبعثرة.

* * *

عندما يقترب من الساعة، وحينما صلى الناس صلاة المغرب بقليل.. فرشت سفر خوص السعف الدائرية الكبيرة على الأرض، وحيث أن يجلس قد فض بالضيوف.. فقد حضر فريقاً

منهم في الساحة، وكذلك الأولاد، وفوقهم المصابيح تفح وتنثر ضوءاً كما يقولون: "كما ظهيرة".

ووزعت صحون كبيرة من الأرز واللحم، على الرجال والنساء، وكانت صحون النساء أقل فهن لا يأكلن مثلما يأكل الرجال.

حالما أكل الجميع صاحوا بصوت واحد: "كثر الله خيركم"، واستعد الناس للذهاب إلى بيوتهم، ففي صباح الغد سيجيئون لأكل الغداء.

و.. عادت الرحمة والضجيج، وتعالت نداءات عالية متفرقة لأشخاص يدورون عن أولادهم، الذين وجدوا في هذه اللمة مكاناً ملائماً للعب، ونشبت مشادات حامية بين أولاد كبار وصغار، حول أحذية مفقودة، وتحت رجل مسن عن حذائه الجديد فما وجده، و ستعاض عنهما بأخرى أكبر من قدميه.

لقد كان هناك تحت الخيمة قرب النار والقدور الكبيرة، يأكل عشاءه مع ابنه العريس واثنين معهما، أما بالله فكان خارج يسده وفمه، وقام بيده اللامعة تحت الضوء بالدرن والدهن، ليلتقط حجراً، ويقذف به على الكلاب المتناحرة في طرف الساحة، وكان جائعاً وهو يدور قرب النار من تقدم أطفال كانوا عند أمهاتهم في غرفة النساء.

بعد ساعة من العشاء، خلت الدار والساحة، وبقيت الفوارش مدموكة، والساحة الترابية محشودة بمواضع الأقدام والحركة.

وبقيت متدحرجة تقصد مع كلاب تقصع همومها الذي يُسمع فيه أصوات بعض النساء اللاتي بقيت مع العروس وأمها. وقد شاركن من كان معهن بعد العشاء، رقصة "السعف"، على ضرب الدفوف والغناء، وهن واقفات صفاً واحداً على الجدار.

كانت العروس تقعد على كرسي من الخشب، كسوه بقماش مزهر. لا تتكلم ولم تأكل من العشاء إلا ما يملأ الفم، وعلى أي حال كان أكلها سيحين متأخراً.. فقد عرف في منزل هذه الأمور، بأن المكلف بتوزيع العشاء في الصحون، قد اقتطع شيئاً في صحن متوسط، وقال هذه "لُزمة العروس".. ستأكل منه مع العريس حينما يختليان في عتبتهما، بعدما يتم الكل.

وبعدما دخلت أم العروس المهمومة والمشغولة بدون شغل، وكما يقولون: "كما أم العروس.. فاضية مشغولة"، وهيأتها للنوم مع عريسها، وبعد ما أوصتها سمرة العاشرة بكثير من الوصايا، وحرصت على إبلاغ "أم حمود" الرفق بعروسه الصغيرة.. خرجت تتصنع جسدها المتعب ورأسها الموجع، إلى جانب العجوز.

كان "حمود" قد أنهك جسده كمضيف، حمل أشياء ثقيلة، وساعد الأب في إتمام الخدمة بوجه يرضي الجميع. فدخل إلى عروسه بقدمين ثقيلين، لكنهما نشيطين، وسمع على سطح البيت

وقع أقدام. فعرف أن بعض الفضوليين انسلوا ركنيهم بعدة كما يقولون: "يتسمعون"، ولكن..

تذكر قول الناس. "اقطع رأس القط من أول ليلة". وتذكر وصية أمه العجوز في معاملة لسة مع هذه الصبية الصغيرة.

* * *

أصبح الصبح، فكاد صبح لم يسبق له شبيه في عين "حسنة"، فها هي الآن والحجر الذي كان ينفسح بالحياء الطفولي، حاجبي الأنف الدقيق، وفي العينين، قد أخذ بممم راياته الوردية والحمراء، ويخرج من باب جديد، تاركاً وراءه تلك الصبية العروس، مع بداية عمر جديد، ومفهوم للحياة جديد، و معاشرة مخلوق آخر من صنف لم تعهده من قبل جديد. يقولون عنها الست إنها "مرة". تطلعت إلى الحناء في يديها وقدميها.. فكان يبدو لها بلون جديد زاه كدم الغزال، الذي يقولون عنه ولا تعرفه.

وامتدحت الأم بنتها مديحاً لا تصديق له، وكما يقولون: "ما يمدح العروس .. إلا أمها".

وعلى أي حال كان هذا الصباح..

فإن على العروس أن تصحب نساء الدار والقريبات، قربتها المطويّة الجديدة، إلى البئر منذ الفجر الأول، لإحضار الماء على ظهورهن، ويقعدن قرب القدور الكبيرة في الخيمة، لعجن

الطحين وتقطيعه إلى أقراص ثقيلة دائرية على قدر الكف، فـــــ "الدعابيس" المطبوخة بمرق اللحم، هي خير ما يقدم من يحيّ من الناس، يباركون ويتناولون فطورهم، في المرق والدسم، وشـــيء قليل من اللحم، وبعدها يُصب لهم الشاي والقهوة.

تُسطت السُفَر الدائرية الكبيرة، وحمل كل اثنين بينهما صحونـــا كبيرة، والتمّ الناس، ووقف الشباب، منشفتين يحوّمـــان بهما فوق رؤوس الآكلين لطرد الذباب، وبين وقـــت ووقـــت يجيئان بطاسات الماء. وعض واحد، كان يكبر لقمتــــه، فجـــاء الشاب المتقد بطاسته، فتجرع منها حتى جعل من لقماته الكبيرة في معدته، تسبح في الماء، وهذا ما لم يكن يرغب فيـــه، فالمـــاء يحرمه من الاستزادة. ليس فقط بسبب الماء، بـــل إن الجماعـــة يغسلونه بنظراتهم، فهو رجل كما يقولون: "لا يشبع ولا يقنـــع" ويجري وراء اللّمات والحملات.

جمع أبو حمود مبلغاً طيباً قدمه المباركون من الرجال، وتعـــرّف جيداً على كل رجل بارك له، وعلى عدد الريالات التي قدمهـــا، ففي عدد الأيام.. يجب تقديم مثله، فيما إذا كان هناك عـــرس، أو ما يشابهه من الأفراح.

لم يحضر نفر من الجماعة، لم يغيبوا عن معرفته، ومع أنـــه دعـــا كل أهل القرية بالصوت للصبيح من مســـجد الجمعـــة، إلا أن: "الغائب حجته معه كما يقول لسان القوم".

* * *

ليس على بيت العريس، أن يقدم وجبة غداء في كل أيام العرس الثلاثة، وليس عليه أن يعنى كثيراً بوجبات تقام في الساحات.. بل يقدم كل واجب الضيافة في العشيات. وهذا هو اليوم التالي بعد ليلة الزفاف، ومن بعد صلاة العصر، سيجتمعون، ويقيمون رقصة "العَرْضَة". كان همّ ذلك، جاء واحد يقرّ بعصاتيه القصيرتين، طبلة الزير وحضر الشاعر فلان، يقول كلاماً يمدح فيه العشيتين وكرم الضيافة. انعقدت دائرة واسعة في ساحة عريضة قريبة من البيت، وحمل عدد غير قليل من الرجال بنادقهم، وتوسعت الدائرة بعد سماع الطبل. ورقص الأولاد في ذيل الصف الطويل الدائري، وخرجت النساء على الأسطح وفي النوافذ.

حوّم الغبار من تحت الأقدام على ما فوق الرؤوس، وعلى الإيقاع المرتب تقفز رقاصان خفيفان في وسط الدائرة، دون ترديد مع الآخرين. فقفز وسط عقالاهما من على رأسيهما، ولوّحا في الفضاء بـ "سلات الجنابي" الخاطفة كالبرق.

جاء والد "حمود المروي" فمنح الشاعر بريالات في يده قدام الجميع، وأعطى الراقصين وقارع الطبل.

وبعد أن تمت الأجساد على أقدامها من الرقص، تقاطروا مع غياب الشمس، على بيت العريس للعشاء، فكان لهم مثلما كان في الليلة الأولى، غير أن العدد قد زاد، فزادت الصحون.

كانت حجرة النساء مع العروس، تطفح بالغناء، وتقرع الأسماع بالدفوف، واحتشدت الأصوات الحادة ببكاء الأطفال، في الروائح الحارة، وشرب الجميع الشاي والقهوة.

حالما قضى الرجال شأن بطونهم، قرع القارع طبلة الزير، وصفّوا صفين متواجهين، بلا سلاح، ولا شيء في الأيدي، ورقصوا رقصة "المسْحَباني" على أبيات الشاعر المختصرة. ورقص العريس مثلما رقص في "العرضة".

أما الأب فكان يقعد لصق والد العروس، الذي كعادة كل والد عروس.. لم يحضر في الليلة الأولى، ولكن نصيبه من الأرز واللحم، قد وصله، وأكله على مضض، وقطرات من الماء الساخن بطعم ملح، تنضح من عينيه. أما الليلة فإنه قد حضر منذ الصباح، وأهدر طاقته في المساعدة وقتاديت الحركة التي لا تهدأ لقلب واحد مثله في هذا الأمر.

* * *

بقي حفل الزفاف ليلة ثالثة، وكان أبو حمود في الليلة الأخيرة قد هبط إلى سوق القرى، فاشترى أربعة خراف كبيرة، نالت رفق السكين. فقال الناس إنه "تحمّس" و"قام بالواجب".

* * *

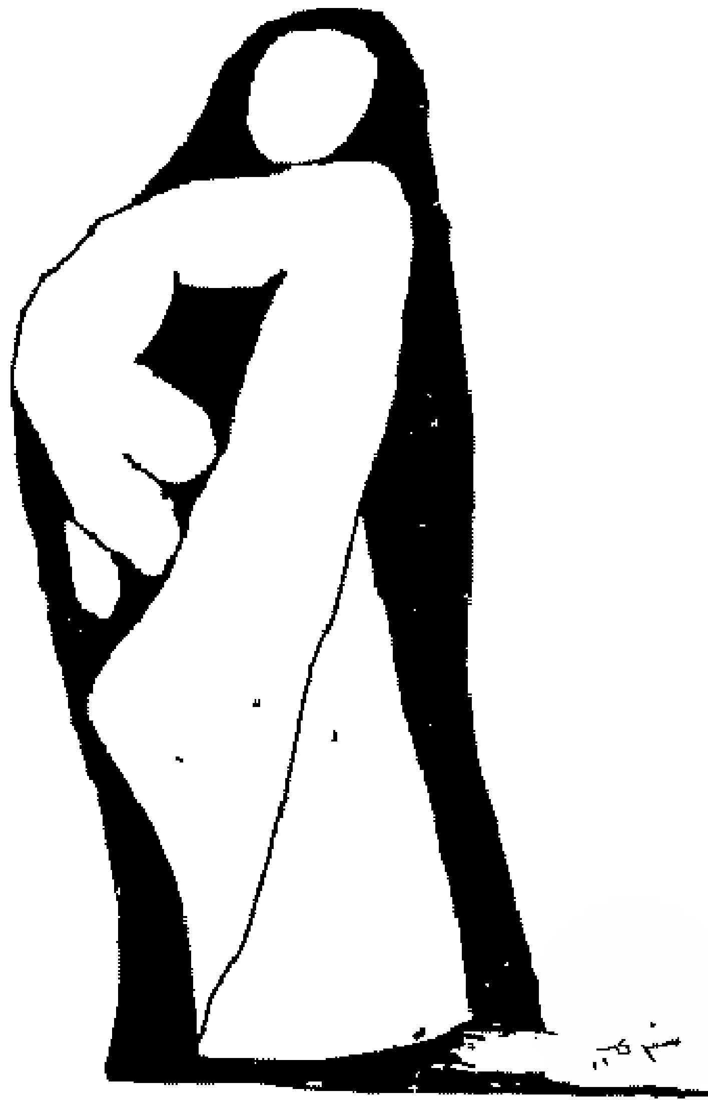
كانت "حسنة" لا تدعو زوجها باسمه، فتقول: "يا مخسوق"، إلى أن يمضي وقتٌ يخرج الحياء من كل جسمها فيقول لسانها اسمه.

وكانت تقضي وقتاً من الليل في البكاء، ولا تشبع بطنها من الطعام، فيحضرها عمها أبو حمود على الصحن الذي يجمعهم في كل وجبة: "كلي يا بنتي"، ينظر إلى ابنة أخيه لعله يستطيع أن يقنعها بدعوة أبيه الطيبة لتأكل، فترد: "الحمد لله"، وحين تخلو بنفسها مع الحنين وماء العين؛ في وقت من الليل، تحس بالجوع، ثم ما لبثت مع الأيام أن أصبحت من "آل مزروي"..

(فصبرت لله، وليمسح بك الصلاح والدراري).

٦/١٠/١٩٩٠م الدمام

مهرة



ها..ها.

أتضحكون مني يا أرذل الشامتين؟

أنا "مُهرة" ألا تعرفونني؟.

ربما خفتني الأيام فأنستكم عيونكم حـــــرة دوركـــم، وبـــت أيامكم، و" خمسة "رحمكم.

ها .. أضحكوا، فقلبي ليس صغيراً كما قد تظنون، إنه لأكبر من بدني، وأطول من ليلة بلا عشاء، وأعرض مـــن وقعـــة المصيبـــة الماعنة. في حناياه كل لحظات طفولتي وصباي وشـــبابي، ومـــا زاكم تلقنون "الها ها "إلا معرعة تتلهّون فيها ـــأرذل عمـــري، لكنني "مُهرة" تلك تعرفونني، وإن رغبت كنـــت أجمـــح في ذي ماضٍ.

* * *

كان قلبها يقرع في حيئة الضلوع، وكــــانت الضـــلوع كمـــا يروون: "تنقص واحدة". وكان السعال العنيف يشـــاغب فتـــور جسد طريح على السرير: فماذا جرى بنيك؟ يا عالمة الأيام يا "مُهرة"؟، أمهرتك الأيام. روحاً من أطراف الديار، فاحترته رغبة في الولد، قلت: شبعت حياتي من الرمل، وشبت "المصيبة" بين منابت شعر بالي، وحفيت خطوتي من مطاردة السروق: بعتّـــي زواجي من ابن الحلال أحمد المتك، والولد.

أكلني العيون، وطاردتني رغبات الرجال، ونقطرت حول داري الصامع، فهل لي لا أجبر هم نفسي بصوت رجل يملأ الدار، ويكسر النظرة الطموع؟.

دخل داري أرحل سدته وصوته، وملأ عينيك ما بين الجدار والجدار، وغضت العيون، ثم جاء الولد، فأنس السكت ومسح صراخه من عتبة الدار، وألقمته حوهر الورق، ونثرت على مهده كل ما علمته من الدعاء وحفيظة البركات.

قلت:

ولد، يحفظ عليّ حاجة القول، ويرد سود البيسان في الكبر، ويحمي من القوم "مسافة" الأخوات.

* * *

تروحت البنت، وثما مع الأيام عود الولد، ورافقته عند أول الأيام إلى باب المدرسة، تحمل الدفتر عنه، وتلزمه الوصية، وتمنحه قلبها ثم تعود.

جاءت الدنيا بغتتها فخطفت الزوج، وبقيت الدار خاوية إلا من معلقتين، وخفت "مهرة" بين السدار والمزرعة، تفلح كما يفلحون، وتسقي كما يسقون، وتحصد كما البقية من القوم يفعلون.

تجمع التين شوكه، وعلى جمرها القصيرة تزاحم مشوار، فتبيع، وتبتاع ما تحتاج وما نقص في يوم عرس. وهل قسوة الأيام أصرى من قلب لا يعرف الجمود؟!

في الغد..

أو بعد الغد؛

يكبر قلب الخاطب، ويمد بأيدي المبيئة، يردع الصعب، ويسترجع الهمّ..

ألا "فيباركك الله" يا وسي.. تكبر كأعلى شجرة في الوادي، وتملأ بخضرتها عيني، فما أحلاك في العين، وما أملأك في القلب.

* * *

ها.. ها.

أتضحكون مني يا أردن الشامتين؟

أنا "مُهرة" ألا تعرفوني؟

لم أبع من أرضي شبراً، ولا مددت يدي متصدقة، ولا هربت عن الزرعة موسماً.

أنا: تلك التي ليست يداها من شوك التين وقطف ثمار السحر نائية، وما عرف الحناء في كفي مقام.

هجرتم ثمرة التراب، ونسيتم الزرع والحصاد، وخرجتم من بيت الحجر والطين إلى الأسمنت والحديد، وقلتم: ركضي خفف يا "مُهرة"؛ لا في الغم ولا في الغضب.

قلت: أحفظكم، لوسع يكبر، ولقب لا يفتر، أزرع وأقلع وأبيع
واشتري وأمّ لأبيض والأحمر ولا أبيع أرض كرمتي.
خرجت عيونكم من محاجرها، وقسم من العجب امرأة تزحم
الشوارب تبني بيت الأسمنت والحديد؟!
ها.. ها.
أنا "مُهره" ألا تعرفونني؟
نبت إلى فرت أرضي على قبري وولدي درّ، وبيّضتها
كدوركم، وأقفلتها بمفتاح صغير كما تفعلون.
و...
في الغد..
أو بعد الغد؛
يكبر قلب الحاهر، ويكبر بالبيت الماليئة، يردع بصعف، وينزع اهم،
ومن صمع في أرض كرمتي، أو بيوت من بعدي، تمسح بقفا كفه
ما تحت شاربه ويسكت.

* * *

كانت مُهرة تفتح عينيها حتى يكاد يجيئها الخوف، وترسل كل
نصرها إلى ما تحويه الغرفة الصامتة من أدوات قيمة، وصعت
حولها كما يبيق لمريض عاجز.
وكانت تسل ذراعيها على حافتي السرير، فتهره كأنها ترغب أن
يندفع وهي ترى ورثيها العنيين، يهدئون حسرتها على ولدها

لديه ته مع الأولاد، فتعلم التدخين، وسهر الليل، وأتعاب عن الدرس، وترك قلب أمه في ست الأسمنت والحديد، ينتظر بوقت صوتين، وهو لا يجيء، فترفع كفيها وتدعو رب العباد بدعاء ينتقم من زمان أفسد الناس خلف الأسمنت والحديد ومال، وأبعدهم عن لذة ثمرة الأرض، وحسن طعم جني المحصول. تقف وتضحك:

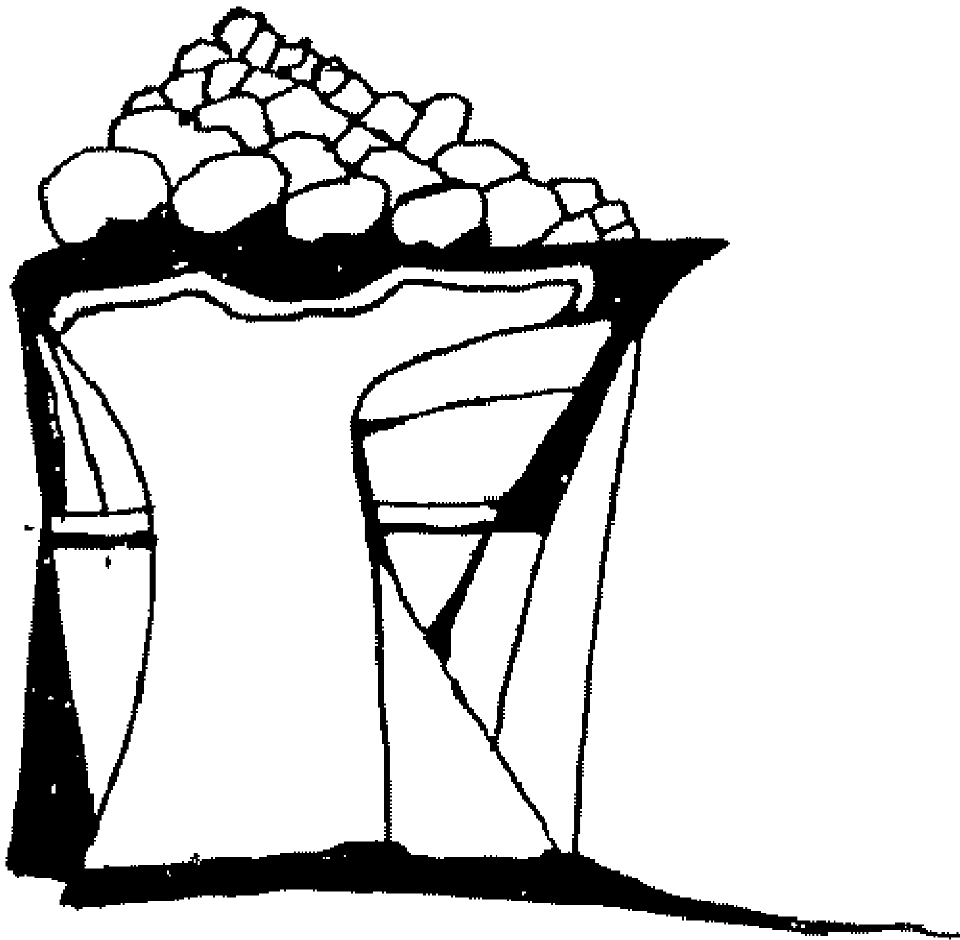
ها .. ها.

أتضحكون مني يا أرذل الشامتين؟.

أنا "مُهرة" ألا تعرفونني؟!

٣. ١١. ١٩٨٨م ــ الدمام

ثوب العيد



طريق المتني على حافة الوادي وصخوره الخشن.. تحسس في أحشائه مسهوكة بالحجارة والتراب وبصمات أظلاف المواشي مع بقايا تنسل لأنوف من روث.. تحس صبيٌّ يعثر خطوته، فتصطك قدماه بكل قوتهما في سعيهن للالتسكين بالحجارة الصغيرة، ويرتفع بضرامها غبار التراب على الأصابع.

* * *

انحنى الصبي الماضي في الطريق فالتقط حجراً بحجم القبضة، وقذف به المنحدر.. فطار طائر صغير نحو الفرار، وسرت حمى جميلة مع الجناحين الهاربين.

أما ذلك القماش الملفوف كالشراع المطوية في يده: فقد نالته مع هزة اليد وقت إذ رمى بالحجر؛ هزة أطاحته في الطريق، حيث انحنى جذع الصبي مرة أخرى على قيد هيبة، فالتقط القماش، وكان سوف يفيح في قلب الصغير سرورٌ، ويقابل حصار الشجر والأحلام واحتوى لمعة وعيون لقطط في ظلام.

العيد على مرمى أيام قليلة، وفرحة الصبي لا تليق بدون ثوب جديد، والأب اشترى قماشين من أسرّ الأخضر الذي يصلح لحركة اليد الصغير بين نسر والأنف على الكُم، وحبر قلم الحبيب على الصدر.

وحين إذ تلمس الصبي ريالين معدنيين في جيب الصدر، عن يسار الأب.. فقته النشوة فجمجمة إلى العم "أبو صالح" حيط القرية من أقصاها إلى أقصاها.

* * *

عندما دخل الصبي من باب الدار.. مدّ بلصفة عمامته، وفرط ريالين مرهقين من كثر التداول، وقال:

- "قص أعيد.. يا عم.

- "أبشر يا ولدي.. وسأل عن أبيه.

كان العم "أبو صالح" يؤرجح موضع قدميه فوق لوح حديدي كبير الفتحات، يدير عجلة ظهرها بسير يبرم عجلة ماكينة من خلفها.. تمسها أصابع اليد اليمنى فتتسق مع ضغط القدمين المتأرجحتين، وتذهب عيناه بين مكان الإبرة، وموضع السجارة الرابضة في المقصة "المرقة" على خشب طاولة مكينة الخياطة.

* * *

نظر الصبي إلى المقص الكبير الأبيض بمسكيه الأسودين.. يخشخش في القماش الذي نال قياساته بسرعة، وتمنى لو أنه يملك مثله ولو ساعة من نهار.

وألقى بصره مراراً إلى وجه العم "أبو صالح"، وهو ينفث رذاذاً خفيفاً من بين شفتيه، ويخرج كلمات ثقيلة ومفعوكة بنحنحة

السجائر، وقال كلاماً اعتيادياً عن العمر والمدرسة وأحوال الأب. وسأل:

– "قل لي.. إنت رجّال، وإلا زُجرجة؟".

احتار الصبي كيف يجيب، واستحى، وبلع في التردد. وحار في الاختيار، فالرجّال مقصد ما يريده كل صبي أن يكون، والزُجرُجة ربما كانت بقايا خوصة اللبن إن كان على ما يعتقد.. ورد:

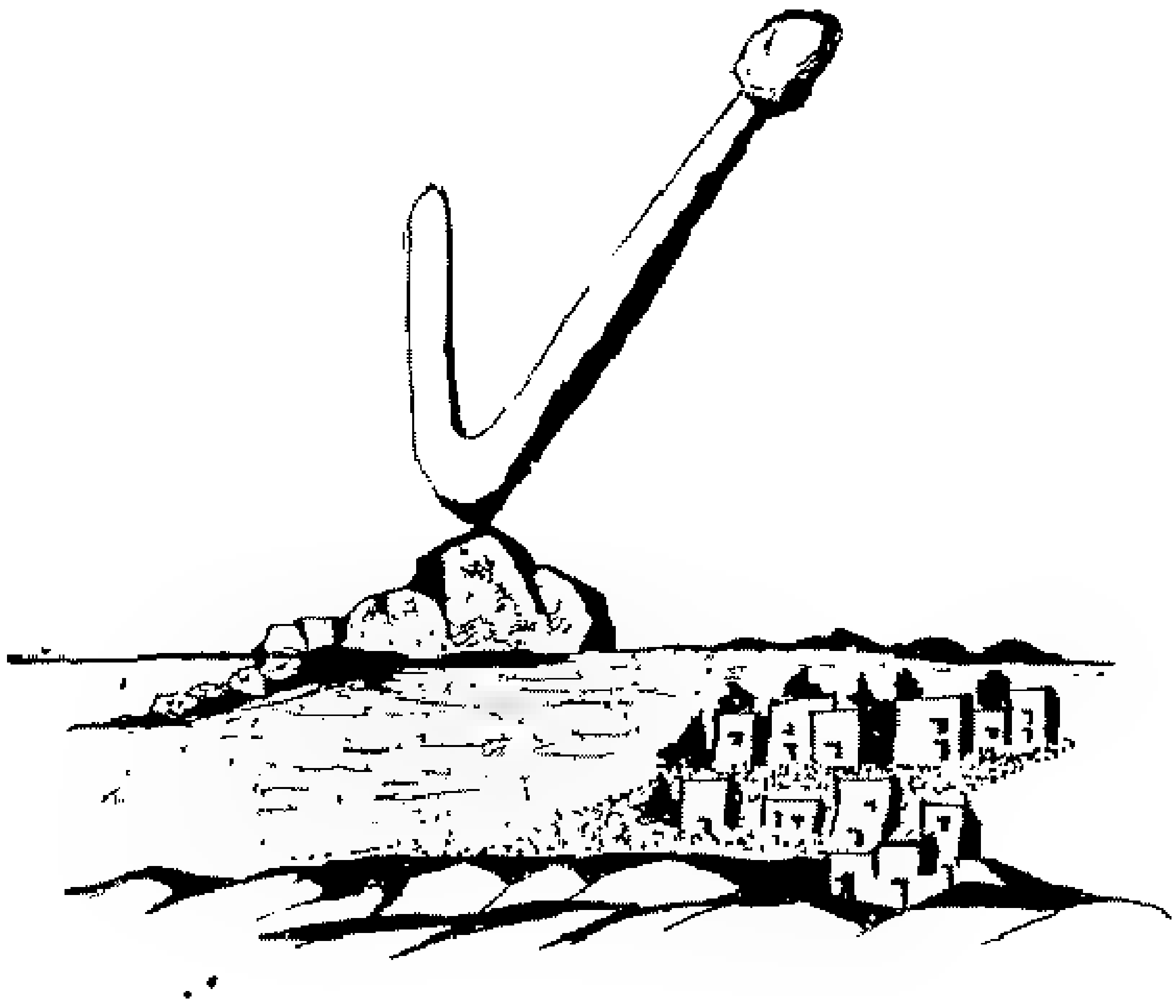
– "أنا رجّال".

"بارك الله.. بارك الله"

دعا العم الخياط زوجته.. فجاءه صوتها من الداخل. وطلب منها شيئاً لم يره الصبي إلا بعد أن قبض عليه في يده الصغيرة، ومضى يدحو خطواته في أمعاء الطريق التي جاء منها، ويقدف بنوى التمرات المعدودات التي نالها دون توقع من زوجة العم "أبو صالح الخياط.

كان العيد يزحف بجناحين أخضرين. وكانت فرحة الثوب الجديد تتأهب لتعقد أياماً في صدر الصبي.. أما ما عدا هذا فلتذهب الحبال التقية كما شاءت.

الشامخ



.. وقيل على ألسنة المتحدثين في مجالس، وناقلات الكـــلام في فضاء الوقت والصحوات.. أن وطيء الأسـف "أبـو غـزوان" يشرب السم، عندما يغمّس فيه خبزة الفطور، يأتي على مـــا تبقى، فيلتهمه بلاعمه ساخناً.

قال البعض: (هو ذا أبو فلان، يمر مثل العنـز فوق الصخـور، ويحفر في الأرض فلا تبدو له شكوى، والسبب.. شربه السم).

وقال آخرون: (لا.. أبصروه؛ على طول الزمان لا يحيد ولا يتعب، ولا يقدر على الحراثة، من أثر شربه للسم، تجمع في مفـاصل ركبتيه فأقعده عن القيام).

ومع أن "أبو غزوان"، كان يسمع بأذنيه، أو عن لسان زوجتـه، ما يوجع من كلام الناقلين والناقلات، والمصيفين والمصيفات إليه في "القيل والقال"، إلا أنه كان يضحك من بعض مارة، ويعلـق: "ليت عندي قدر السم"، وتزيد حافظة سره في هـذا الأمـر: "متى كنت يا مخلوق، تشرب السم؟".

أما وإن بدنه لا يكتنف هذه التهمة، وعياله، لا يتميـزون عـن عيال الآخرين في البناء؛ فربما دل ذلك على بهتان، ومـا أكـثره عند من وجد في وقته الفراغ.

* * *

"أبو عروب" يحب الصيف، ويحوسه في غير مناسبة إلى داره،
فتشتكي "أم عروان" بالصوت البسيط، وتصيح في وجهه:
"يا مخلوق.. أفقرتنا مع ضيوفك، وما عندك؛ لا يكفي عيالك".
بصوت خفيض، يرد في كل مرة:
"لنا رب كريم".
ولا زال القوم يدعونه لدي لأنف الوطيء!.
(غير أن "أبو عروب" أفضل في كثير من الأمور، ممن هي ذي
أنف مستقيم منهم، وما وطأة الأنف فيه، إلا ضربة جاءت على
استقامة الأنف من سوطه، فأوطأته، فسمي وطيء الأنف).
في القرى المجاورة، يعرفونه بـ"طويل الذراع" ومحبته للضيف،
و"فزعته" عند الحاجة.

* * *

على امتداد المساحة التي يبرم طرفها بناء من غرفتين صغيرتين،
كانت تقف بكبرياء شجرة "خمّاص" فارعة، وكانت أوراقها في
الخريف تتحاى في توال مستمر إلى داخل الغرفتين والساحة،
فتغيض الزوجة حين تكنس، ثم تهبط الأوراق ثانية، وترتص
صفراء جافة بالأطراف في كل الأركان وأسفل الجدران، وكأنما
وجدت مكاناً طيباً مهيأً لنهايتها.
وإذا جاء الصيف اخضرّت وأثمرت ولزمت ورقها، فكنت تغري
النفس بثمرها الأسود الحلو، (وما أشد أن تغري مارّة، وأن

تعري ستة تصبيان و ست، لدي يمكون تقسره عني التسق والقفر، والهروب).

اليوم، مس لصبح لصبيعي الهدئ، فعنت (هده الحامدة الحمة) ما تعيه من بعر ء المارة، وحدتت مجوس صبيان من الحري ثلاثة بالقمز عليها، فععلوا، وملأوا اليد والفم والجيب، و حدة عني أخر الوقت أنو عرون حيث كانو سيسرلون عن الحماطة و... يهربون.

أمسك باذاهم، وقرص قرصة المري استفهم، ثم تصبع إليهم، ورأى أن هذا لم يقص عنى كل علين قبه، وقال في حالته: (متى، متر عبرى.. من يرضى الخصيئة عني أرضه و زراعته؟).

حففهم، وكان الدمع امتاح مع طين الوحع، يأخذ بهم كل مأخد .كانت عصا طرية تنسر تحيبها، اشتحها من الحمامة، و راح يلهب ظهور ومؤخرات الصبيان، فعادوا هرباً وأماً بى دورهم، وقد تناثر من جيوبهم الحماط، وشكوا لأهاليهم ما جرى.. عصب لأهل وأقاموا ناراً يصعب قتل لهيبها عني ذي الأسف الوطيء، وقالوا: (والله لا نسكت عنها.. نعي يهتك أولادنا.. كيف هذا؟ يأخذهم بجهلهم، ويلهب جنودهم بالضرب!). قاموا حانقين إليه، هروا باب الدار، ففتحت الزوجة، وقالوا بعصب: "هيا.. أخرجي ذاك الفأر".

لم يختف "أبو عروان" حرج، رحّب، وقعد، ثم دعا "أهل البيت" طالباً القهوة.. كانوا صامتين، وتكلم أحدهم:

بكل هدوء ي وطيء لأنف، تستقبلنا!.

ابتسم وقال: تفضلوا، اقعدوا.. أنتم ضيوفي، اشربوا القهوة، ثم تكلموا.. إذ ي حق أحده منكم، وإذا لكم حق، تأخدوه من عيني الاثنتين.

نظر القوم إلى بعضهم، ودب عصبهم بين كلامه وقهوته، و اتفق "أبو عروان" معهم، على أنه قد أخطأ، وبالغ في تربيقة إلى الضرب حتى سلخ جلودهم، ولكنه بلغهم أن "أسادي أطلم"، وأن أحدهم لن يرضى بيد تمتد إلى حقه من زرع أو حلال.

قبل أن يتم الوفاق، بطلب منهم، على تكليفه بذبيحة، أو ذبيحتين من الغنم.. يحضرها كل رجال الجماعة، ويأكلونها في بيته.. كان قد سبقهم قائلاً:

الليلة.. الله يحيّيكم، بعوا من لم يعلم، وتفضلوا جميعكم.

* * *

بعد أن ترفقت الزوجة هذا الصباح، وبسطت كثيراً من العناية بقهوتها وفطورها، وكانت تلاطف في حديثها "أبو عروان" فتقول:

"مد ايدك يا أبو عروان..".

وتجيء حبات التمر لقفشة، وبعض برماد عن كسرة خبزة، مشتوفة من حروف الدائرى، فيهتز الأسورة لعضة ويضحك بعضهم بعضا.

قالت بصوت منتحب:

"يا أبو عروان، كل جيران، معهم "روادي"، ونحن.. يعني نحن نقص، وإلا ناقص؟، لا والله".

رفع رأسه في وجهها، وهزه على مهل نحو الأعلى والأسفل، وكان يعني الموافقة دون كلام، فاستبشرت

لم تأت على الأسبوع نهايته، حتى كان صندوق صغير تحمله بيد واحدة، يبعث بأغان، وأحاديث وأخبار، لا تعني أهل الدار في شيء، لكن لابد من سماعها، (فهو المؤنس يعني وينكسم في كل شيء).

وحرصاً على سلامته، كان يرتفع على حامل خشبي، بعيداً عن متناول يد العابثة.

(وبدا كل حارات، لا يصدق فيملأ عيونهن لأن، وأذهن).

* * *

حصام كانت جذوره تضرب في البعد، وتغني في القلوب؛ ورثه عن الآباء والأجداد؛ جيل "أبو عروان" على أشده نعت سببه كما يقولون "ما يستحق الذكر"، فكان بين القرية، و حارة أخرى، على أثر دخل، تترصد صيدهم قبيلة سكانها.

اجتمع جماعة، و حرجو حهد مشورهم، و تفقوا على حسمي الأمر و ثار لانتقام.

قدم "أبو عروان" وصف من جمع قريته، سمح لـه بالكلام.

قالو: هذا يضيع وقت، ويؤخرنا في السود عن وجههم

وقائل فيهم قال: دعوه نسمع، لن نخسر.

تقدم "أبو عروان" وعلى لسانه كلمة تموح في الصدر منذ وقت بعيد، وقال:

(يا جماعة خير. مالك وسخصام مع جارتنا العلالية، تعالو نتصالح معهم، ونقف جميعا في وجه خصمنا الكبير قبيلة بني فلان).

صاح على الحسن صمت ثقيل، وكأنما كانوا في غياب بعيد.

قولوا: حنت بك وشه، يا شامخ الأنف. لو تصارعنا مع جيرنا لتعبنا، وربما نخسر، ثم تأتي قبيلة بني فلان. وهم أكثر قوة ورجالاً، فقع هراء على كل لسان في القرى والقبائل.

في يوم قريب تجمع وفد، وكان شامخ الأنف واحداً منهم، وقدمو على القرية الجارة، عرضوا عليهم الصلح، قالوا: نتشاور. بعد المشورة، قالو: أنتم ضيوفنا، لا تروحون إلا بعد أن تأكلوا وجبتكم من الضيافة عندنا. وكنا نجمع وادي واحد، ومنافع كثيرة و حدة، فنذهب لجهة إلى مكان غير مكتب.

الدمام ـــ ١٩٨٨

مهران



.. (وماذا صح بك الزمان، وزمنك الوحدة في ركض السدر؟؛ تناهشك الهموم، وتتقاذفك خواطر من باب إلى باب؟ والله، ما أنت ضعيف، ولا سدي مقدم قاصر، ولا يستفيق إلى أسرع وأشعله من الجمعة مُستبق)

هذا خاطر يصدر "مهران الأعمى"، تذكر كل ذكر لأحوال الشيب كل قد مر عليه.

فها إنه يبرع ملامة ما فعله الزمن برجل طويل ذراع، وأقعده كفيفاً، بعينين منطفئتين. (وعليك أن ترى نفس من شبوب الخاطر ونقع، وإذا ما حركت عزة واهنة كهذه.. فغير النفس مبلاة، ولا تمسحها كل وين على المال والمسار).

كان "مهران الأعمى"، قد استدعى أحد الأحفاد، يحضر له إبريق الوضوء، ويأخذ بيده إلى طرف الساحة، يطيّر التراب ويتوضأ؛ فعاد حفيده، وتعذر كادت تشعل المدرسة، وقام إلى العصا الطويلة السمراء، فأمسكها من رأسها المعقوف، وجعل يعبث بها ويطاول سقف الخشب.. بالحس أدرك الحدُّ الكفيف كذبة الحفيد، وليست الأولى منه، فثار الحرب والمرارة في دواخله.ونسي الأمر وجرى بخاطره خيف زمان قد مضى عليه عشرون عاماً أو يزيد.

* * *

ألقي الكفيف على حصرة الحيان وقت الضحى ص، فحـــاف الحمس، ورأت روحة الآس.. سواجـ، وقت روحة المتـــعولة سعر وإدارة بيت: صب.. يا مهران يوصت ولد من الطريق الحفية، خذ عصاتك، وعلى مهك. قام الحفيـــد، وقـرّب إلى قدمي الجد نعليه وعصاه.. أمسك بيده، وقال: "هيا يا جـــد". وجاء "مهران" يعرس عصاه ويقطعها عبر الطريق على مـــهل، إلى الجار.

قال الجار مُرحباً:

"حيا الله أبو عبد الرحيم".

وقعدا مقعداً بيناً يليق بامتصاص الوقت إلى ساعة الظهر.

كان إبريق النسي المقبح بالحلق.قد جاء بعد حلّة" القــهوة المعمّرة بالحـــزبن والهيل.وكان الجار يهبك عدداً من السجائر، التي تتناقص رويداً من العلبة الأنيقة. وكان الحفيـــد قـــد جـــاء مرتين، يسأل عن جده إن كان يرغب في الرواح، فيجيب الجار: "عند أذان الظهر.. يا عمّي".

وكان الحفيد للمرة الثانية، يدخل على بغتـــة، فيقطـــع ســـافة طويلة، كما قد بدأها الجد:

(وقد وصلنا على أرجلنا إلى نبع الماء، نقيا بأيدينا فيه، وكـــان الماء يفرح فوقنا. بعضنا شرب، وحمد الله وقعد، وبعضنا شرب، وقعد يتقيأ الدم.

وحنف، ما نمشي حتى نرود الماء، ورمى بعضنا سر ده من الطعام، ونرود بدلاً عنه بروح الحيوة. وكانت قربة الماء ثقبة.. لكن العطش، أراد الموت).

كانت سوالف "مهران" كلها من الماضي قبل أن يطفئ السور من عينيه، ويبدو أن الجار، أحس لمعة "مهران" عن ذاك الزمان، فجعل من نفسه كلها.. أذنا واحدة، تسمع ولا تعلق إلا بالقليل. (ألا فيؤجر الله ساعة الظهر.. حتى تكمل السالفة).

* * *

حدثت خاطرة "مهران" وقت إذ مال على سريره، وأسند إلى حافته عصاه الطويلة، وبعد عودته من زيارة الجار. وقد غص صدره بالحياة، عندما سمع لعب العيال في الدار. وقال لصوت الفرح في موجة هادئة: (ما أعجبك إنسان. كنت أكلم بهجتها ذات حطة، وأوقع نفسي في كآبتها). جاءت الزوجة تسأله إن كان يرغب في القهوة قبل الغداء أو بعده. فاعتذر عن شربها باسماً، وأكد أنه شربها، وشرب الشاي عند الجار، وهي تكثرها. تقيمه من فوق الفراش بيصير التراب في كل قليل من الوقت.

* * *

النهار مكتسٍ بضوء صيفي، و لصدور بعد نتاج محاصيل الحصيدة؛ مُنْهَكة، وليس في لقوم هذه الأيام، من يشتغل بشاغلة تـــأخذه عن راحة حتى تسقط أول أمطار الوسمية، فينهض كل إلى أمره.
نادى منادٍ من طرف الساحة:
"يا أهل البيت.. يا بو عبد الرحيم..
وأجاب من الداخل بنداء المرّحب:
"أهلاً بك..تفضل".
وكان مهران المرحّب، لا يشك في هذا الصوت الأليف، الــذي يزوره على أحيان من الغفلات، في عصاري الأيام: "مســعود"..
(فحيا الله الضيف مفاجئ، وحيا الله أية رجل بعــده تحصـــو في هذا العصر السعيد).
مد "مسعود" يمينه، وسأله عن الأحوال والعيـــال؛ وكــذا رد "مهران" بـ"بخير" وسأله في نظام يعرفه الجميع عن أهل الــدار والحلال.
وقال "مسعود" إن السماء صافية، والشمس صاحيـــة، ولا أثــر للبراد، فرد "مهران" بأنها أيام القيظ، وراح يعدد على أصابعـــه السنة القصيرة، الأيام الثابيات، وحساب النجوم.
قبل أن يوغل مسعود في الحديث في أوانه؛ كانت الزوجة تدخل و بين يديها إبريق شاي، وثلاثة فناجين زجاجية، وتقعـــد متربعــة،

لتصه في المساجين، وبعم اسؤ ل عن عيب "مسعود" وروجـــه، فيجيبهم: "بخير، الله يسمك".

روى "مسعود" و جهة حديثه، ورح يشكو لصاحبه، عن تغيير الأحوال، واختلاط صفي الأمور بغثـــها، وكيـــف أن كـــر ساس.متهم مثل سوت لهاتف في شوار ع المدن ..لا تتكلم حـــى تضع في أفواهها القطع النقدية، وراح يشرح لـ"مهران" كيـــف تعمل هذه الصناديق، وكيف تبع الصوت عند حاجة من تتكـــم فيها إلى مكان بعيد.

عجب "مهر ن" قليلاً، وأكد لـ "مسعود".. أنه آخـــر الزمـــان، وعلى لله، فيتوكل لازماً عروته الوثقى لمتوكلون.

وكان "مسعود" يدق صدره برؤوس أصابعه، تغمض عينيـــه، ويكرر:

كبارهم.. لا يسيرون أمراً لأحد.. حتى يدفعوا، مثل صـــندوق الهاتف.

* * *

"يا ولدي.. حمت لله، أنا شايب، وسلاحي كم محطة لضعـــيف السفيه".

هكذا رد "مسعود" على حفيده "مهران"، حيثما جعل يمازحـــه، ويطرح عليه لرواح من تحت لتي "حملها درع"، وكان يعـــي

ملاصقاً لحمارة، ولم يكن الحميد ليدرك مغزى نعم "مسعود"، لكنه قال دون علم وفي خجل: "لا.. بروحها أنت".

تدخل "مهران" بمرحة أغلظ، وكان حكيماً في هذه الشئون، فقال للحميد: "شوف يا عمي.. روح حمتك.. قل لها: تسوي لنا قهوة، وقل لها: حسني يقول.. في قعدا المدوب حشمة".

ضحك "مسعود" وأعاد جزء ما قاله "مهران" متبسماً، قام الحميد وهو يحذر لسانه، أن يلت قولاً، لم يدركه.. فيه مزحة عمه.

وعلى أي حال من الأحوال، فقد بارح الحفيد أحولاً تختلط بالرضي، وبغير الرضي، وعارك خطوته، ثم اندفع إلى حجرته في الحجرة الداخلية، وبينما هو يقفز كقطة؛ وهذا ما كان يحاول تمثيله.. اعترضت قدمه بسلك المذياع الممدود خلف سريره، وبلا أدنى ممانعة سال في الحاجة مشدودة، وكاد في تعثره أن يسقط على وجهه، فقام نعم "مسعود"، وأمسك من طرف ثوب الحميد وهو يردد: "اسم الله عليك.. اسم الله عليك". ومن ارتطامه للمذياع بواجهة الحائط؛ كانت قد تركت لسان الجد على هيئة هذا السؤال:

"خير.. خير وش جرى؟".

ويجيب "مسعود" عن الحميد الذي احتفى وجهه بالخجل:

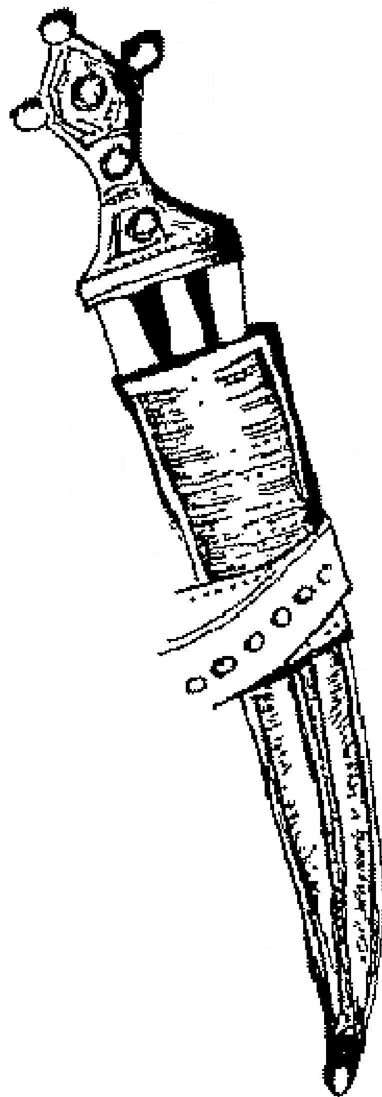
"حصل خير.. "الرادي" طاح".

حينما كان "مسعود" منشغلاً بإعادة المذياع، وإسلاكه إلى مكانه، على الصندوق الخشبي، قرب رأس "مهران". كانت الزوجة تدخل بـ"دلة" القهوة وفناجينها، ومعها صحن صغير على سطحه الحلو ف تمرات.

كان "مهران" يأخذ دون كلام؛ الفنجان من زوجته، ويمتد بيده إلى مفتاح الصوت في الراديو، يضغط على صفحته. فيرتج البيت بالصوت العالي: "هنا لندن"..

الدمام – ١٩٨٩م

قِطّاع الجنابي



هترأ وجه ابر ب من ضرب المسحاة، و سـال نعـرق حـارأ كـنوب لمعدل من جبين "أبو معجب" فأقام انحناءة ظـهره في لأمام، وأهمل عن عروة احديدة قبضته اليسرى، وزفـر زفـرة تتلاءم مع طوله القصير، وقال:

"ارمز وفي قلبي كما قطع احبابي".

وحينما جاءت لزفرة منغّمة ممطوطة؛ كان أصغـر الأصـابع في القدم اليانية يـسر دماً، وكان الدم القاني يسال سرحاً على هيئـة لقصراء، فينفرد قليلاً على التراب الندي إلى أن يمتص حمرته.

وتطلع "أبو معجب" بنباهة من يعرف كيـف يقيس ضربـة المسحاة، وكمن يألف مثل هذا الوجع الدامي؛ أهمل عن اليسـى كامل العروة، وقعد.

ملأ الكف بالمدَر المندّى، وحثاه على مهل فوق مكان الجـرح، وحدث خاطره (أن لبيت قريب، وبقطعة مـن قمـاش مـع مسحوق الشاي ستدمل ما انقطع. أما وإن حذاء "البلاسـتيكية" الرقيقة لا تمنع شوكاً ولا "حفى". فليغفـر الله عـن لدولتـها، وبيسها أهل الأقدام لضربة هذه لأيام).

تحسس موضع الحزام من الوسط، وفاح رضى قصير أنـه لا زال مشدوداً، وشر بصر العينين إلى ما فوق لكعبين، فاطمأن إلى خلو طرف لثوب من الدم.

كانت الشمس تجمع سيلانها الأصفر نحو الغروب، وكان الغروب يجرجر مع نهايته الحوافر والأظلاف وشقشقات الدجاج في الساحات. وكانت الآذان الفاطنة تقتنص من غير حسس مزاليج الأبواب على المواشي.

حين دخل "أبو معجب" ساحة البيت، رأى حمارته الرمادية واقفة كصخرة، تطرد بذيلها المشعر القصير عناد الذباب؛ فآلمه هذا الإهمال. ورتب كلمتين ثقيلتين جاءتا من فمه إلى مسمعي "أم معجب"، وقالت على حب ومضض.

- "جئت تستريح، وإلا جئت تتخرّى؟"

وقال "أبو معجب" على حب من غير مضض.

"هيا .. تعالي، اربطي الحمارة في مراحها".

فإن كان هو لم يغسل قدمه المصابة بالماء الفاتر، ويتوضأ لصلاة المغرب، فهي "بلا كلام" لم تترك الحمارة في دين أعمامها؛ إلا من الاشتغال، ولم يكن هذا خافٍ على "أبو معجب".. فسكت لسانه، و"وبوبت" بعض ما في حلقها، ثم سكتت..

وكان الطفل الذي غطى كفه الصغيرة فوق أنفه من قرص الذباب؛ يمدّ صوته، ويخرج مع أبخرة تحته، فيلصق بأنف الرجل. ورأت "أم معجب" أن تعطي قفاها للرضيع، ووجهها لأبيه، فهذا كما توسوس في خاطرها: "مقدور عليه"، أما الكبير فقد جاء مرهقاً من الوادي، ولا قدرة على..

* * *

وقتما كانت "أم مصعب" تسير بطحين لتسدي الأسود على الإصبع المدمى، كان صاحب الجرح يجثو عن الوسط الحرام، ويقاهر الرهبة مغتاظاً. وكانت لمة الحزة واللبن مع الأولاد ثلاثة، تذهب مع "أم مصعب" بكل مكسور، وكان الرضيع قد حبا كالضماة بعد النطفة، وكان الإصبع الملفوف يتسرب في بطء ما تحت اللفافة، وكانت الحمارة قد رتعت في معلفها، وكان الليل في الساحة يستوعب كل همس..

تسلق خاطر "أبو مصعب" وسرح في الأيام المقبلة، فرأى "مصعب" وأخاه، وقد تزوجا، وجاء الشقاق بين زوجتيهما وأمهما، فاستقل كل منهم مكاناً بعيداً عن البيت، وتفرد كل بزوجته وعياله.

ردع وساوس الخاطر، وزفر بغناء خافت:

"ازفر وفي قلبي كما قطع الجنايي".

سألت الزوجة: إن كان يحس من صبعه بوجع، فما ردّ.

وسألت إن كان يرغب في فنجان قهوة بعد العشاء، فردّ: القهوة نفسها طعم البن.

وقالت بالصوت الخافت:

"الله ما وبك يا مخوف"

ذهبت تموص بين أو ابيهم، وتدليت بعصبية مهترئة عن لا شيء يمكن لـ"أبو معجب" أن يسقطه من معابـــهد، لأن عدوسة هايتها كانت طيبة في الأذن.

* * *

خرخر الماء في المسيال.وتسرب عبر فتح صغير نحـــو مزرعتـه، وسقى النبت الأخضر، فنمى في العين وتمي في القلب، وحصـــل وقت الحصاد، وحين تلفت المزارع إلى أهل بيته؛ لم يجد عينه من يساعد.

الولد تزوج، وشغلته أمور الزوجة والعيال.

وأم معجب تقول:

"أشقيتنا بزراعتك.. الخير في أسراهم، والناس هجروا بلادهم".

وقلبه يقول:

يا "أبو معجب" أرضك.. أعاشتك، وأعاشت جيلاً قبلك.

كان "معجب" وأخوه يمران كالطلقة بسيارتهما مـــن الطريـــق الإسفلتي، ويعرضان عليه الركوب، أو حمل مــــا علـــى كتفـــه فيرفض، ويرفع يده عن رضى مشيراً بالشكر.

وعندما كان جوابه:

(استحي أطلب من أولادي الريال، وأنـــا لي يــدان تعمـــلان، ورجلان تمشيان).

كان الناس المتندرين يسألونه:

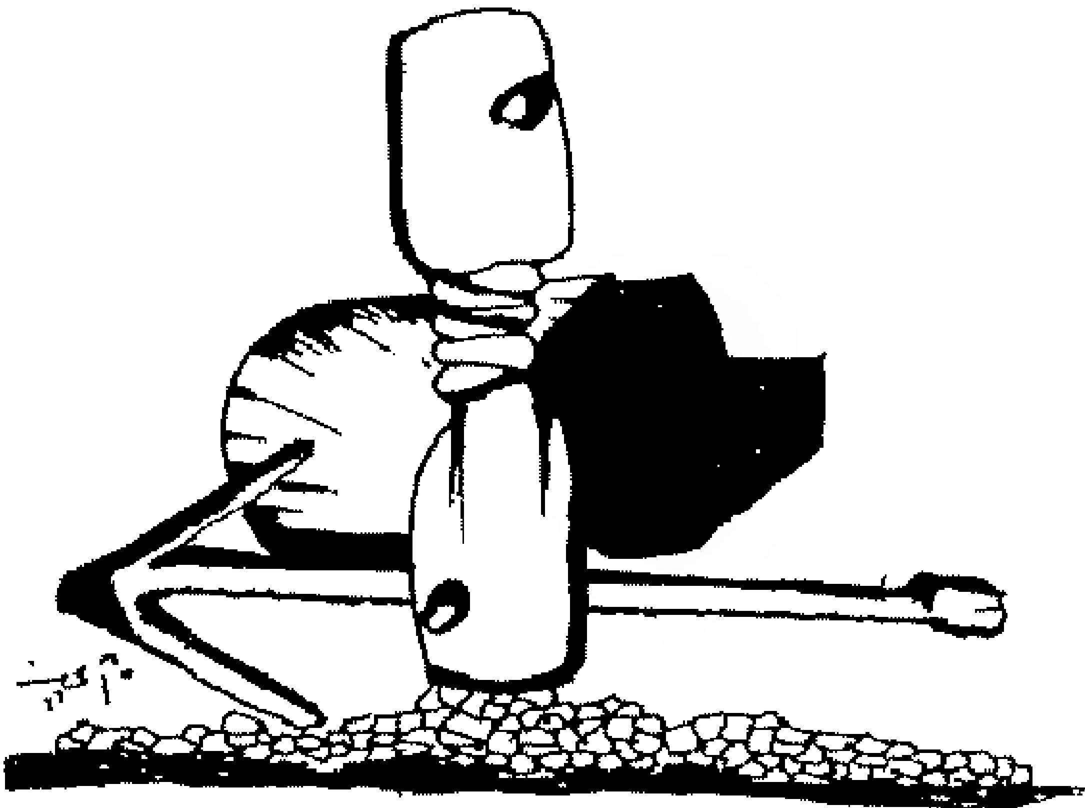
أولادك موظفون، وأنت لا تزال تزرع.. ما تستريح؟!.

يرشو بغناء مكتوم:

"ازرع وفي قلبي كما قطع جناني".

٢٦ /٥/ ١٩٨٩ ــ الدمام

الاستسقاء



اندلقت من عينيه نظرة حاسرة إلى حقل القمـــح، وقــد تحــول بالسنابل كالشهب. ثم صعّد النظرة إلى سقف نحيف مــن الغمــام.. نحو الشرق الذي ولد شمس الصباح منذ قليل للظهيرة، وقال:

(هكذا نحن نسقي الأرض من العشاء والحصى، ونسهر الدروب، ونحــصد بالمحاريث ونرعى باليد والسنان ونقنص الفرى بدرباه، ونجئ حوافــل الغيم المغتنم كمتلئ فتتقي بنثار البرد على كــل ســنبلة مســتت بالحنت المستقيم، فيعدو في حضيض الأرض.. فأكله الأفطات النمل والطير، فلا تسقي ولا تدر).

فلما فرغ "أبو ركبة" من هذا الهسيس في الخاطر، لمــع في الســماء برق، وصعقت منه الآذان صواعق قصيرة، وتضحت علــى الأرض أول أخبار البرد.. فصاح كما يصيح بالصوت المرتفع كل ســامع في القرية خارج السماء: "يا كريم"، وبقي يجرجر حــاجراً في الصــدر محملاً بالغضب والحسرة والنويح المرتقب.

وحيث أن الموسم قد أدنى ما يفيض به الــزرع والضــرع، ومــلأ بالرضى كل صدر، وهنأ كل عين.. فما بال الغمامات المدنّية بالخير الأمطار.. تأتي كل ثمر الزرع الناضج فتبيد كتمانه، وتصب البــرد على أذرع الأشجار المورقة المثمرة فتاحها.. فيهمّ عند الجذوع؟!.

* * *

صاح بأهله.. أن يلجئوا إلى الدار خلال، وكل ما يُخــاف مــن حصنا السماء عنه.. ففعلوا، وفعل معــهم تحــت نثــار تجــي

كانرجح تقس.. نقسٌ صافياً كعيون سعر، قاسياً لا رطمانه عى صدع لرأس وما تحت الضلوع وجع لا تمحوه العضبة ولا استهقه، ولا من يجمع بين لكفين المبسطين برحوة لدعاء.

فالآن.. لن يقف هد سماوي الفاسي، حتى يمق كل حريبة سه في لعمام؛ عى رأس كل مثمر ناضج يرتع عـــى الحصـرة النائــة واستسه ألا.. (فليتوب الله بفضل رحمته عى عمد "كاين ركــة".

وعاد في القوم بيسو نقليل.. أفنوا جهد عنايتهم في الزراعة، وقصوا في انتظار ثمره شهوراً حتى يحين القطف.. ويأتي ـــرد الغمامـات قاصداً متعمداً.. يواسيه دلأرض كالفاع الصفصف).

فما صوى ابن ركبة حسب المرارة عى طوب الموسم، واستعوض الله فيما دهب من لسيين ضحيه لبرد، ودهـب مـن دهب في استعداد جديد.. بقي وقتاً مع الناس ينتظرون مصر لموسم لحديـد، واحتضت أكبادهم مع البذور المدفونة تحت مدر الأرض؛ فأبطأت الغمامات وتأخرت عن سوقها الرياح، واحترقت الشمس؛ ف تقصر صوبها وحرارة هبها من الشروق إلى الغروب، وضحكت حواقـق الضلوع من عجب الأمور وقال "ابن ركبة" في غدرة الطلام:

(أوّاه.. بالأمس كما ستعيد برب الأنواء، من برد يهلك الأخضـر واليابس، واليوم نستعيد برب الدهر من موسم لا تُبس في قحصـه باسقة).

* * *

أسرّ إلى زوجته أن تقتصد حين تقبض بالكف حفنة الطحين، وزادها بالوصية: إن البطون تعتاد نفوس أصحابها.. فإن عوّدتها على القصقاص غدت واسعة لا تشبع، وإن عوّدتها على الوفرة والتدبير.. تعودت على ما عودتها عليه.

أومأت بالطاعة ولتصبر إليه المروحة، وأغمضت عينيها على دراري بطنها الأربعة، وكبيرهم لا يكاد يبلغ الوادي وحيداً، وهي في بالغ الحاجة إلى معين في تعب الأيام التي لم تخلُ من حضور تعبها وسقائها.

تدفقت الأيام في أذيال الليالي، وشحبت مكامن المؤونة الصغيرة، وبلغ سعر "رُبع الحصة تلك "الرويّة".

وكان..

(ما بك يا ابنة فلان؛ وكأنك عدمت الحيلة وقلة الجهد وحطة البصيرة؟، أليس في البئر ماء؟ وإن قرب البئر مستنبت طيب من الأرض فيه البقل وما يصلح من الخضار للأدم والأكل؟، وقربه ما يشبع بقرتين حلوبتين من البرسيم.. "عيشِ الخوصة من الله! ، جُزّي البرسيم الأخضر سانت واطبخيه مع قليل لطحين، وانتقي اللائق من الخضار واسكتي فراغ المعدة، وجوع الروح والذراري.. يوم، ويومان، وشهر، وآخر.. يغير الله الحالة إلى خير حال.. و كل الناس متلك بمعنوب.. فتفعلي.. فتنفعي من تكره النعم).

* * *

عندما قعد "أبو ركبة" مع درازيه قرب ركبة زوجته؛ يبعث دخان سجائره حتى وجد لها وقتاً فائضاً.. يمهلها من تمسك الأحصر ويهذبها؛ وفي حضرة الشاي المعتق بورق "الحبق". نفضت عقصة والمصة نص صدره، فألقى بعقب تلك السفوفة البيضاء على طرف من مقعده، وبقيت تأسين على غطاء دؤابة رقيقة من دخانها الأزرق.. جالت عينه بعيداً بعيداً؛ وحولهما بأسرع من نظرهما إلى زوجته، وقد بالغت كعادتها في وصف أمور العشاء بعد هم الغداء وتفاهات البيت و الدراري.وماذا ستكسب في بعد من أكل سحور الصغيرة وكيف أنها تخاف على دجاجاتها في البرد المتتشب هذا الشتاء؛ من اعتداء الكلاب، ودحرجت كلاماً آخر عن أشياء لم تكن لتعي الروح الذي استمع إلى كل هاربة من فوهة، وقال:

كأنك تخمين جبل الوادي على رأسك خوفاً على دجاجاتك، وكأنك نسيت ما يتوعدهن.. آذيا، وقدر سكين، ولو صح من لنهش ما في أيدي أطفالنا.. وتأتي في غيب رعايتك ضالة الكلاب فتهنأ بها، ونحن بالندم يدب فيه الصدر والجبين.. اسمعي يا ابنة فلان.. إن كنت في عبر عقلك؛ فهاتي السكين كحدها على رقبة إحداهن.. لنا ولأطفالنا العشاء والطعم المديد.

ما أبطأت الفكرة عن رأسها من قبل، وهي العارفة بحال دجاجاتها، والبالغة في المعرفة ليوم يأتي نحو على رقبتها سن السكين. ونست

حادثة لا تنقضي مصائبها بالسلات سعض.. وليس عزيز أن تعوّض عنهن بأخرى مما فقدت.

ولما كان الرد منها يأتي في شرب حدّ السكين.. كنت الحاجة تُقاسم أخواتها في ساحة الحركة والصحيح.. إذ عمدت إلى قدميها يد المزوجة، وجمعتها كما تجمع عرضاً عتيقاً، فراحت الدجاجة المقلوبة تقطر من ملاقطها بالصوت المسعيت.. وأجرى الروح على الرقبة المستسلمة بين أصابعه السكين، وتولت الزوجة خصة نزع الدراري بقية سأتها.

* * *

كاد الموسم يفني إلا قليلاً، وهبّت في قحط الأيام رياح جافة.. تشتّت كل ذي جد على عظمه، وامتدت يد في العشيات على رقاب جميع دجاجات الزوجة، وتمنى أن ركبة" لو أنه تدبّر أيام الوفرة فشترى بقرة كما أشرت عليه بالرأي زوجته، وكاد ينتف من اسدم ذؤابة لحيته.. ثم استعاذ بالله من هواجس الشيطان، كارهاً "لو أن". وهزّ علبة الصفيح الفضية الرابضة عند مقعده، فوجدها محقونة بـ "التمباك" الأخضر. فاغتبط، وذهب يوصف بأصابع يديه التي اصفرّت أظافرها، سيجارة حلى.. مرّر برأس لسانه من طرف الورقة إلى طرفها، وكواها و.. سرح في الدفء حامل ينفخ من مشب النار، وشرب عدداً من قدحين القهوة المهرة بحضرين مع الزوجة والدراري. وكانوا جميعاً يهطعون في البرد والرياح المتقصفة،

إلى حُجر النار ينتظرون يوماً يفيق فيه أبوهم.. اليوم سمعوا كثيراً ولا يدرون ما هو كائن وماذا سيكون.

* * *

و..

اليوم بقي من خلال الماشية حمارة عجوز لا تكاد تنوء بالحس، وقطة وثلاثة هررة لم تر عيونهم النور، وفي الساحة أظلاف قوائم الثور الوحيد الذي جاءت إلى خيمة حاجة الحبيب وسعد.. باعه "ابن ركبة" لأهل القرية.. أخذ كل مشترك في شرائه منه "سادياً" من اللحم، أما بقايا الدم والأظلاف فقد تركتها.. فما برحت تمتص الرياحات والشمس وتكمات النمل الصغير.

* * *

كانت ساحة المسجد بعد خطبة الجمعة، تجمع كبار القوم، وكان من بين القاعدين على رؤوس أصابع قدميه.. رجل مُقعّد الجفنين مستقيم الأنف، وقد أركز ذقنه على قبضة كفيه المطبقتين على رأس العصا.. راح يفرغ سمع أذنيه مع القاعدين الذين يستفرجون الله قُرباً بعد الانتظار والجفاف، حينما قال الشيخ:

يا جماعة الخير.. جئنا نأمر بإقامة صلاة الاستسقاء صباح الاثنين القادم.

٢٣ ٧ ١٩٩٠م ـــ الدمام

حد الأسفلت

أقوال تتسامع في المجلس، وأصوات تكاد تلمس سقف الخشب.. بالأيمان والحلفان، وبين لحظة ولحظة تردد لفائف الدخان المتصاعد من سجائر المدخنين المتضاربين بالكلام في شأن ليس بكبير.

رجل قليل الكلام، في الجزء الأخير من العمر، يعتقل عقالاً ليبرم عمامته على الرأس.. مال إلى الخلف، بنظارتين لا شك في أنهما طبيتين بذراعين سوداوين، شدتا خلف أذنيه بخيطين خوف الانزلاق.. تبدو العينان المتحركتان سريعاً كعيني قط حذر.

فوق الثوب الأبيض التراثي معطف مدلع الصدر، وكان يعني بلا تردد للناظر أن أحد "أزريره" قد شدّ في غير ثقبه فانقطع.

لزم "مصير" ركن المجلس، وأهمل يده الممدودة فوق ركبته كالعصا القصيرة، وقال ببطء الواثق:

- يا جماعة الخير، الطريق إلى بيت "سعيد" من عهد الأجداد، معروفة للصغير والكبير.

- معروفة للرّجل الماشية والصادرة، وليست معروفة للسيارة.

- ما كان عند الأولين سيارات.

- يعني من حق سعيد اليوم؛ أن يفتح للسيارة خط.

كانت الأقوال تتصارع حول هذا المعنى. وسُمع على الباب الداخلي نقر، فقام صاحب الدار، وجاء بإبريق شاي كبير ذي معلق، عاد وجاء بصحن في جوفه فناجين زجاجية، قعد على ركبة ونصف وانهمك يصب الشاي في الفناجين، ويحاذر ألا يسمح يده.

تطلّع إلى الجالسين فرأى أكبرهم "مطير" فقدم له فنجانًا على يمين الداخل وقرب سرير خشبي متهالك بأثر السلاطين ولبسط الحصيرة المعتقة والملونة؛ قعد صبي. يداعب قطة بمرية لشعر كثيرة، تتسلل من يديه وتحوم ثم تعود بتلطف؛ وتقعد في حجره للدفء، تخرج "قرقرتها" المسموعة؛ فيربتها بعطف خوفًا أن تسرق ما تعلمه من قرآن (كما تحاوره الجدة).

كان "مطير" يرشف الشاي بصوت عالٍ، ويرسل نظرات ممتعضة إلى الصبي والقطة وكان الجالسون يفرغون في ترشف بالفناجين الساخنة، ويذهب بعضهم يتحدث، وكأنهم قد اتفقوا على صلح ما؛ فأسكت المصحح.

لم يخل المجلس من فقيه يكتب الصكوك وسيأتي بعد الوفاق؛ بحمل التعب والحبر والورق، وسيكتب في ذيل "الحجّة" الموثقة شهادته ضمن الشهود، ويضيف: "كتبه معوم بن علي.. غفر الله له ولوالديه" بخط بين "الفارسي والديواني".

أما وأنه يدرك إدراك العالم أن "مطير" ضعيف البصر وقد تعرض مع هذا العمر إلى هيجان جمله الحاقد ذات يوم قريب فأهشم بعض ضلوعه، وكاد "لولا عناية الله" يعجبه بكل قوته. فإنه سيقوم بالورقة إليه، ويجبّر إبهام يده اليسرى ليثبت شهادته ضمن الحاضرين.

كان القوم بالاتفاق قد سمعوا من الأداء من "معوم" أن سعيدًا يستحق إيجاد طريق لسيارة إلى بيته، وكل بيت كانت له طريق

للرجل والحاضر، سيعدو له طريق لسيارة سو أرد، "وستهد الله وهو خير الشاهدين".

قام كل إلى شأنه. وكان خارج الدار يحتفي بمصابيح الشتاء، وصباح أحدهم راجياً أن يخلف هذه المصابيح المطر: "فرج الله قريب"، وتقافزت النظرات إليه داعية راجية.

وحينما دلفت الأقدام إلى خارج الساحة؛ كانت تمت مقطقطة تجر ديلها، وتقود خلفها ثلاث قطط صغيرة كثيرة المسواء، وإلى قرب قرص أخضر كبير من التين الشوكي قعد واحد يريق الماء ويوزع الالتفات. ليطمئن إلى أنه لا أحد حوله؛ ولا خوف على حواف الثوب المتهدل من البلل.

حيث كان "مطير" قد خرج مع الخارجين، واتبع قدميه اللتين تعرفان كل طرق القرية بالخطوة، وهبط إلى الوادي المقابل، وجعل بعينيه المحسنتين خلف زجاج النظارة، يطوّف مزرعته، فتتخلل قدماه بالأعشاب والنباتات المتصفة التي عاشت بالأرض، وها هو بناء المدرّج الذي لا يكاد يُرى من تشابك النباتات؛ يهدم خطوة القدم، ويجعل آلة "مطير" تكاد تعمى كل المساحة من حوله.

و.. تستعجل زوجته "شريفة" عودته، فتحدث خاطرها بحديث كلان "مطير" يحدثها به في الصباح؛ عن رغبته في زيارة المزرعة المهملة في الوادي، وتدفعها بيتها على ذاك المكان؛ عله يكون قد تأخر لسبب.

عندما سمع صوتها قرب دور القرية.. كان الرجال يحملونه من تحت كتفيه، ويقعدونه على لين الفراش في ركن الدار، ويستدعون "ابن حسين" مجبّر العظام، ليعيد مفصل اليد إلى مكانه، يوصيه بالسمن والبيض، وكل ذي طعم مرّ، وينهاه عن التمر، وما حلى طعمه من الطعام، ثم يكرر الوصية على "شريفة" المسؤولة الأولى عما يحدث لليد المكسورة من خطر.

وبما أن "ابن حسين" مجبّر الكسور، لم يمد يده ليقبض "وسع أيديا" من الريالات فهو يقبض من "مطير".

زار أهل القرية مطير أفراداً وغير أفراد، وكانت "شريفة" تحرص على اليد المعلقة في الرقبة بالقماش الأبيض المندى بالسمن، وبين البدن الراكد في الفراش، فتجمع للبخور في البيت عجاجاً أكثر مما يعمل عند نفاسها. وكانت تحذر أن تهمس دخان الحطب الحارق، لكي لا يأتي إلى عيني الروح الضعيفتين، فتشب نارها على العجين حين وقت النوم، وكان هذا ما يسهرها بعد نوم كل العيال.

اشتهى "مطير" حبة تمر مع القهوة، فأبت "شريفة" وقالت: "وين أنت يا محروق؟، ابن حسين.. منعك عن التمر". وقامت إلى الداخل وجاءت بحافة من خبزة العيال وعليها صفار بيض تملأ ملعقة العين، وقالت تطمئنه: "بعد أيام، تطيب، وتأكل حتى، لا تعجل".

* * *

"يا عتق حسث يا شريفة .

هكذ صرحت روحة "مطير" حين بعنها و باعت زوجها وعياها الحر . فقد جاء رجل غريب عن القرية، وسأل عن دار "مطير السعدوي" حتى دخل من العتبة وقعد إلى جانب رجل كبير السن، يضع على عينيه نظارة بزجاج أبيض مكبر، وقرأ عليه ورقة صغيرة في يده، علم "مطير" بعدها أن عليه ترك بيته، والبحث عن سكن بديل يؤويه، فـ"حظ الأسفلت" تقرر أن يأتي على داره. وكما سمع عمن حدث لهم مثل هذا.. فإن التعويض بالريالات سيبلغ جيبه ذات يوم، غير أن وضع الحال، وسمه على تاريخ حياته الذي سيذبح منذ الطفولة في داره مع زوجته وأولاده، جعل قطر عينيه يتحدر من خلف الزجاج بصمت.

الدمام ـــ ١٩٨٨م

المركوب



ثمرة لا يحصى في معرفتها أحد. أحقر من كل شيء في القرية حقير، و سيصف، أسعد من صاحبها، وقوية لا تبلى مع كدّ السنين، شبةٍ فوق معصص إبهام الرّجل، وبعفوف سير متين على ظهر لقسم.

كان "عثمان" يحتذيها في الصيف و الشتاء.

و حيث أن مادتها من بقايا عجل السيارات و من المسامير الدقيقة، وتعيش وقتاً يملّ من طوله المحتذي، وإن بساطتها، ورخص قيمتها؛ لا تغريان بالسرقة.

حدث في ذات عرس من القرية الجارة، أن ضاعت، و سرقت أحذية كثيرة، وبقيت حذاء "عثمان" يتيمة. (ومن تسوّل له نفسه باستعمال هذه الرخيصة المعروفة؟).

هناك يا واصف خلق الله بالعيب و العيوب، عمامة "عثمان" التي بالت بخطوطها السوداء المتقاطعة في بياضها المربع، سنوة المتستر، وهات لسان ستدمت في عمرة لونها وحاجتها إلى الصابون.

(وماذا تصنع الكهنة "حمدة" بعمامة "عثمان" التي لا تعطف من الدّسم؟).

* * *

رغب "عثمان" هذا النهار في دفء الفرش، وأتى على شق كبير من غداء الكهنة بعد أن صحا متأخراً وسألها عن شيء يمسك به جوع بطنه الخاوي، وما دامت "حمدة"، وكالعادة.. تصيح في وجهه سمّي "البصل الأحمر" فتقلبها هذه المرة عن نفسين، وليأت لنا "برق

استيقظ، وحين أرق ما كان من غيث سابق، ومن بين أتى على السرير جاهزاً، وهو يعد "عثمان" في الدفء والانتظار فوق حقول حوله.

سأل "عثمان" عن عمامته التي جمعها قبل يومه قرب الفراش البارحة، فقالت كهينة إنها غسلتها، وستجيء بها من الساحة، فقد جفت.

ووضع عجيرته قرب موقد النار، وكان على حنق "الكانون" قدر مفحم الجوانب والقاعدة، يصدر منه صوت خفيض لبخار أصفر، فقد ملأته حتى المنتصف "حمده" بحبوب الذرة التي تحتاج إلى نار، ووقت طويل.. ليلين ويحضر للعشاء.

* * *

كان رد الكهينة "حمده" حين سألها عثمان عن ابنه الوحيد، أنه منذ الصباح عند أخواله. وردت بلسان اليقين، أنه سيعود قبل دخول الليل، وكانت تطلب من "عثمان" الأب، أن يمنح "ابنه" بعضا من قمة الاهتمام، فيكون حوله بمهمة الحريص "أخاف عليه". وتجيب الأم أنه رجل يحسن التصرف، ويعلم في المفارق كيف ينجو بنفسه. فيغمض الأب عينيه، ويقول: "ودعته خالقه".

ما كان الولد ليخرج من البيت إلا قليلاً، حتى إن أنداده من الصبيان، يدعونه بـ "المستحي"، ويدعوه الناس من أهل القرية بـ "العاقل"، غير أن سند الأب، وقت إذ هزه بالصوت المر مع

وبالتهديد، ساق حصوته نحو أخواته منه بقسب لأن عن ادوات الحلاقة في الصحن؛ شهره بقسوة: ما أحد غيرك في البيت.. يعبث بأدواتي.

ومهما تكن الحال؛ فإن "مينه ستعود إلى مجاريها، وستمحي لمسة من يد الأب على الكتف الصغيرة كل ماض مرير.

أما وإن الأم قد نالت شوك الكلام في مثل هذه الحالات، فإنها ستلزم شفتيها السكوت، وستمسح حنقها حتى تسكين المضمة القصيرة المبهمة والكتمان.

عندما عاد عثمان" من الوادي، وله به أرض صغيرة تعيش على ماء السماء، قال لـ"حمده" إن السنابل الناضجة تحتاج إلى الصرام، وكانت في محصولها؛ لاتزيد عن الكيسين، والكيس يكفي باليد المدبِّرة شهراً من الصحن المحور، (ويبارك الله فيما يعطي).

بعد أيام شدّ على حمارته المرحل، وأحسن ميرها على ظهرها، و"أشبى" أسنان "محشّ" الصرام وقال: (على الله، سوي الحصاد)، وساق أمامه الحمارة، يركب الولد"، ويدلي برجلين صغيرتين قصيرتين. أما "حمده" فنظر في ساحة البيت، بعد أن تجهز الوجبة في وقتها، وتتقف من الناس حين عودته الأولى؛ كما تحمل الحمارة، تسطّحه على الأرض، ويعود راكباً من أبيه، وتبث حالة كل ذي حصاد في الوديان والمدرجات.

وضع الولد مقعده على الحمارة، وأهمز على الحنين قدميه، وصاح بالحمارة: "هش"، فمضت في طريقها من غير عوج، ثم ما لبثت أن مدّت خطوها، وأضافت على سرعتها؛ فمال إلى جانب "الولد"، ودعاها باللين لتقف.

عاندت الحمارة، وانقلب على رأسه، فكان الولد يخط على الأرض، وقدماه معلقتان في "المراحل" الخشب، وإن الحمارة ليجيفها البدن المسحوب، فتزداد سرعة وخوفاً. كانت قطع اللحم من الرأس والكتفين، والدم.. تصبغ رؤوس الحجارة على طول الطريق، و كان "عثمان" بعد ساعات؛ يسب إلى جانب كهنته ويشد:

"يا حجتي يا هاق جوف السفول"

ويعمم من يعمم، ويشد باللحن الحزين على "الولد" الشهيد.

* * *

(ماذا جنيت في دنياك يا "عثمان"؟، وأين الفم لدي سيصبو باهناء على اللقمة المرّة؟، وماذا بقي لك في الأيام؟).

هكذا حدّث "عثمان" نفسه من بعد عشاء؛ في ليلة أنفق فيها مع "حمده" كل ما على اللسان من حديث، ونظر بعين الرجاء والأمل على وجه كهنته، وقال:

(لا عليك يا "حمده"، اليوم نخسر الولد، وغداً نكسب الحياة والرزق، فليعوّض الله، وليختر ما يختار لنفسه، فهيا نام). وكانت

"حمدة" تمسح قصر بعين، وتقوم فرحةً صغيرةً ... مع كلام "عثمان".

أيقنت أن لا مخلص للبكاء إلا البكاء، ولو ذرفت من الدمع بحوراً،

وقالت بلسان العصر المستقيم:

(يا عثمان، لا تبقى قائمة لولد في البيت).

ترقرق "عثمان" بقول "حمدة" وراد عينيه، أنه قد نوى، وهو يتمتم

حنان، فـ"لتنقلع" إلى حيث لا يدري.

* * *

كان النهار مشغراً، وكاد الناس يأتون بأكياس الحنطة على الحمير

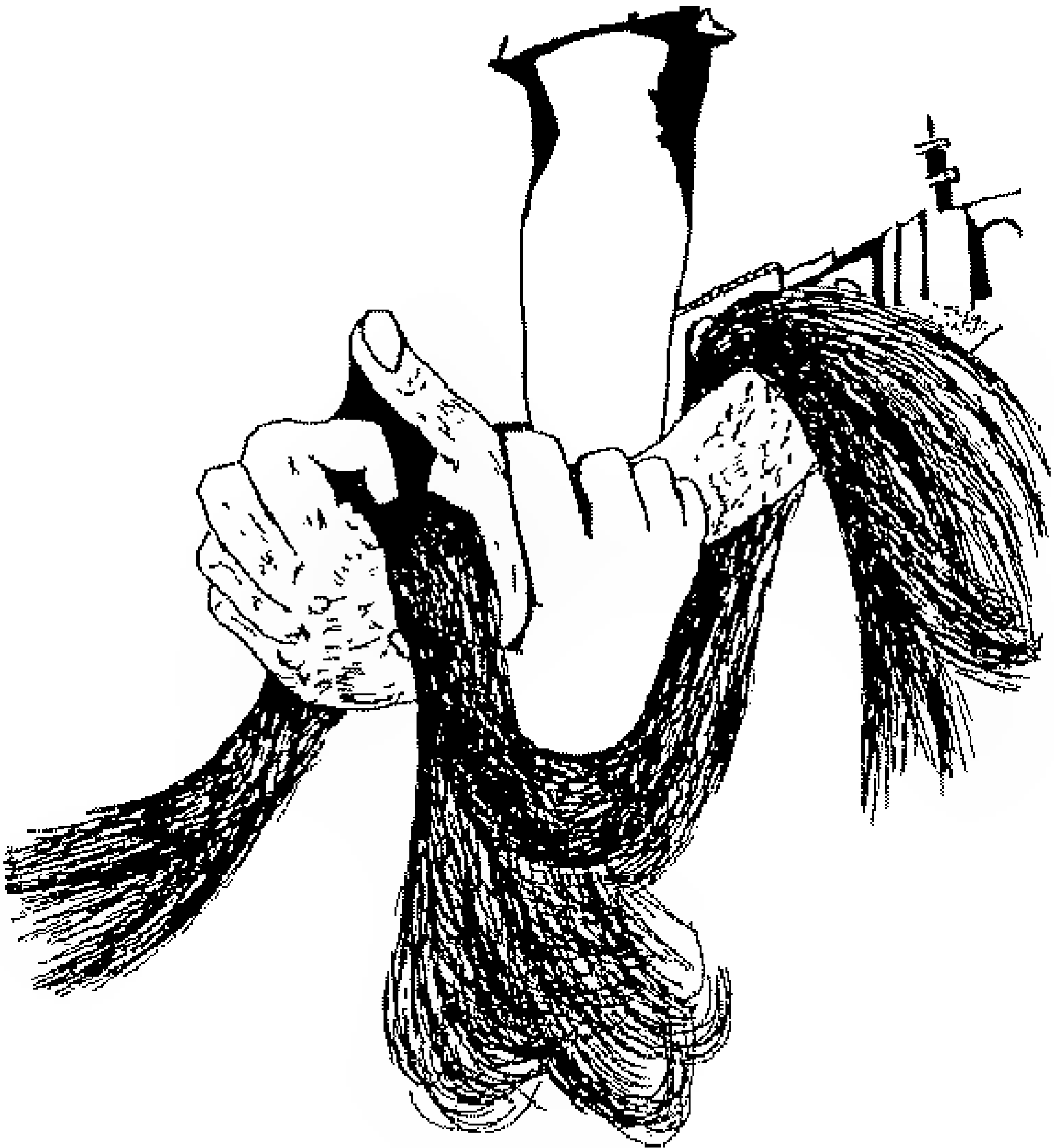
إلى بيت "عثمان"، وكانت "حمدة" تحنو على كل ... بشرب

القهوة وتردد:

(ما ضاع من تعاون، ولو باليسير .. بين القوم)

١٩٨٩ ــ الدمام

ابن القاسي



كان "علي ابن القاسي" قد تعلم القراءة والكتابة منذ زمن بعيد، على يد الفقهاء الذين كانوا يعلمون الصبيان القرآن، ويؤمّون الناس الصلاة في مساجد القرى، فينالون من الأهالي نصيباً من حصاد الثمار.

ويذكر "علي" أن "الفقيه" حرمه مرة من حضور الدرس، وتوعده بعقاب العصا.. لأنه لم يجيء كالآخرين بما يقابل أتعابه في التدريس. ويذكر أيضاً يوماً.. أنه فرح جداً، وانصرف أمام عيون الأولاد، على حين مناهجه الملصقة بعيداً عن البيت والحقيبة.

عندما بلغ في تعلمه للقرآن سورة "العنكبوت"، رأى والده أن يذبح شاة للفرحة كان ينتظرها ويعد لها، وقال الناس: "سورة العنكبوت.. فيها شاة تموت".

أدرجت الساعة عودها، وما شعر الشاب بعد أن كان كمن انفحم، وزاد الرشاد زيادة، واشتد عزم الفتى، فكان يحمل عن أبيه الطاعن في العمر أثقال الحمل، ويقف عنه في كل موقف. وفاض لسان الناس بالحسن والثناء لـ"ابن القاسي". فقالوا: لم يمت، كما مات البعض مع عصيان أبنائهم، وهم أحياء.

* * *

سمع الناس بافتتاح مدارس، ستحل محلها الفقيه وتعليمه.. فكانت تعلم الحساب، والتاريخ، والعلوم.. وبعد سنين قليلة يقبل فيها المتعلم كبيراً أو صغيراً.. يدخل معهداً للمعلمين، فيكون مدرساً لمن

هو أصغر منه، وبأخذ من الحكومة قدراً من المال، فكان "علي بن القاسي" واحداً منهم.

وأصبح يرتدي الثوب الأبيض المزهر بالسين، ويضع على عمامة فوق الرأس عقالاً، ولم تنبو عين في رؤوس الجماعة.. يوم زفت أخته الوحيدة ما امتلأت به، فرفع من شأن أبيه وأخته، ولم يكن ينقص ذلك الاكتفاء إلا غياب الأم، التي ماتت كما يقولون "بجوع بطنها".

* * *

أصبح صعباً على "علي" وقد خلت الدار من الأب والأخت، فمثلما جرت الأيام لأخيرة على أرذل العمر.. جرت على أبيه، وطعنت طعنتها الأخيرة، التي لا حياة بعدها. ومثلما جرت على الصبايا العانسات.. جرت على أخته بدخولها بيت الزوج.

وها هو "علي" يفتّي لحيته، ويؤرجح ساقيه، ويذهب بعينيه الثابتتين في بيوت القرية بيتاً بيتاً، فمن تكون تلك التي ستأويه وتعجن خبزته، وتغسل ثيابه؛ وبالمودة والرحمة تملأ عليه البيت وتنجب الولد؟

بعينيه اللتين صفت بنات كثيرات: فبنت فلان طيبة بنسان حسنة الوجه.. منبسطة في الانشراح والمراح، وبنت فلان شديدة في الفلاحة ثنية الطاعة لكر الحياة، وبنت فلان في كعبها النكوص.. لا تخوص ولا تموص ولا تبني اللقمة الرقيقة.

(فحتر يا ابن القاسي، وعييت بالعزم وتنفد ما تصمره ستك، فلا انتظار بعد اليوم، ولا خَيْر لزمن يأتيك تصفق فيه لكف بالكف).

فكان لـ "علي" أن استعاد بروح عمته.. يخطب له (صبية الحسان حسنة الوجه.. البسيطة في المسراح والمرح).

قالت بنت فلان تلك: ها.. أتروح وارث أبيه وأمه ووحيد أحنه!. في ألعد يقولون الس صمعت في وحدته، وباعت نفسها معاشه الذي يأخذه من الحكومة. غضبت أمها، ولكنها قبيه خط، وكستها "الخري"، ونقص المعرفة.. فمن لا يقبل متى علي زوجاً. وبالأب ذي الكلمة النافذة هددها. فحدقت وحجبت، وهطت برمش لناعس فوق عين ذات الستة عشر، قالت بصدرها النابت "كما العجائب الكئيبة": أبا بنت فلان.. رأيت قاصر، ورفضت ناقص.. حذي "شور" أمك، ولا تصنعي في البيت بينها وبين أبيك الشجار. ولم تجب، فكان كما يقولون: "السكوت علامة الرضى". وكان في البنات من حسد، وفيهن من تتمنى، وفيهن من لا تعرف بعد كيف تهيئ قلبها للدهشة

* * *

كما يتزوج فتيان القوم.. تزوج "علي" وفي الغداة سرحت عروسته مع النساء المكحلات المحنيات بالفضة و"المصارد".. إلى بئر السقاية ينزعن الماء، ومعهن حملت قربتها، وعجنت مع الأيدي الكثيرة

"قال" الضيوف وقت الضحى. لقد أصبحت تحت ضوء شمس جديد، وفي بيت جديد، وبين يدي رجل منعم نظيف الثياب.

قعدت قدام المرآة.. فرأت وجهاً غير الذي عرفته قبل الزواج، ولملمت خصلات شعرها الأسود المضفّر، وابتلعت ريقاً سائغاً، واهتزت "دلاديل" الحلي لمضي في اليدين، فأدركت أن البارحة ليست كالماضيات، وأن اليوم لن يكون كالبارحة، وأن ستّ كانت في حضن الأم، وبين عيني الأب وألفة الأخوان.. قد جاءت سيدة ستكون مديرته، وأليفة رحمه، وأم ذراريه.

وقال "علي" بعد انقضاء مراسم الحفل: يا "خضراء".

فقالت على خجل: "يا مخلوق"، ولم تدعه باسمه كما فعل معها. أيام تجيء وتقول يا أبا فلان. وأيام أخر يدهشن بالخجل إلى ما شاء. لا حماة، ولا أخت زوج ولا عمّة. وفي مربض خلاء.. مثلث للناس: حمارة، وبقرة، وثور أحمر عريض القرنين، ودجاجات يتفسحن في الساحة من البيض يأتين، ومزارع تنتظر الفلاحة والبذر.

مضت الأيام، وهنئ "علي" بالزوجة الحسنة، ودفء البيت باللمسة الأنثوية الهنية، وقال لأيام الوحدة: "من يدي في يديهم"، وحطّ الريال من المعاش مع الريال حتى نما المال في جيبه، ومرت سنوات ست والزوجان يرقبان الوليد.. فما زاد مع الترقب إلا الإبطاء.

* * *

صمتت الحسرة في صدر "حصراء" وتشحب الأمر بنفس "عـــــي"، وتنقل الكلام في ساحات من لا سيرة في أحاديثهم إلا قيل وقـــال. وسمع "عمي" قولاً هائجاً يصعق في خاصر، فاغمض العــين. وتقـــر الأهة من بين الضلوع، (فمـــن يكـــون الخصـــم، ومـــن يكـــون المختصم؟!، ومن دخل القوم في عـــش كـــائنين ارتصبـــا تحـــاصل النصيب؟!).

قال فيه لسان: "دجاجة صمعاء".

وقال لسان: "لا يحذف مع الناس، ولا يجيء بالحصى".

قال آخر: لا خير يرجى من ظهره.

وإذا كان "عمي بن لقاسي" قد كساه لسان الجرح ثيـــاب غـــير البيض التي يكتسيها.. فإن "حصراء" قد أدمت من أظافرها بالكلام المشتك، والقول اللاذع.. فقالوا: إنها كالبقرة تدخل ولا خير منـــها. وقالوا: العيب.. فيها والشر في كعبيها، وقـــالوا: لـــو أن "عرقـــها دسّاس .. لأنجبت كما تنجب النساء.

ف: (من يكون الخصم، ومن يكون المختصـــم؟!، ومـــن دخـــل القوم في عش كائنين ارتصبا تحاصل النصيب؟!)، وكيف يرضـــي عمي" و "حصراء" أناساً لا يعجبهم عـــجب ولا عجيـــب؟.. ألا فليدعا الله أمراً لا يد لهما فيه ولا رجل.

قال والد "حصراء"، وهو يهز يداً حمقاء في وجه زوجها:

بنتي تجيء في بيتي، وأنت تقعد وحدك في بيتك. وخرج بها عنـــى كره منها.. فمن تكون لطاعة يا ست أبيـــك وزوجـــة عمـــك؟.
انفردت معه عمي لوعيد، وحملت جمراً في لصدر لا يـــراه أحـــد. وتنازى ماء حارق من لعين فكوى قلب علـــي'. وجذبهـــا مـــن طرف الثوب وقال:
روحتي يا عم، لم تعد ابنتك.. فافعل ما تـــرى. هـــتز ذراع الأب، وسطلم عمى وجه الابنة مهدداً: امشي يا بنت إن كنتي من ظـــهري". علي لصوت، وسمع السامع، واجتمع المجتمعون.. فقـــال البعـــض أخطأت.. كيف تنزع ابنتك من يد زوجها وهي مكرهة؟.
وقال آخرون: دعوها معه تذهب.و لعل الأمر بعد وقت إلى الخـــير يصير. قال "علي" والغضب يعصر سكينته، ويفلت من بـــين يديـــه حكمته: لو خرجت، فلا تعد بعد اليوم من عتبة بابي.
احتد وجه الأب بالقول: افعلها؛ إن كنت من الرجال.
"غضب الله على السلطان" قال الحاضرون. سحب العـــم ابنتـــه، وسحب الواقفون على الأمر عتباً.

* * *

كان الفجر يتدثر بضوء رمادي بارد، وكانت القرية في آخر نومتها، وكان "علي" يدب كالوهن، فيشعر "خضـــراء" في بيـــت أبيـــها بحضرته.. لتخرج إليه مسرعة بسر شفتيها الأبيض، جمعت "قلاقـــل"

حليها وفي صرة تحمها ايب، مع ملابسه وصعنهب، تم وهبت في يد
الروح يدها، وعادا دون عين ترى، أو أذن تسمع إلى دارهما.

و..

حين تتصف الضحى، وقّت رأي مع زوجة الأبُ.. خـــرج
أولاً إلى دار زوج بنته، ونادى باسمه من الساحة الفسيحة فأتاه،
وقال: مرحباً يا عم.. أدخل فالدار دارك. كأن العم لم يستمع
لقول طيب، وتجاهل أن يرد بأحسن منه، بل قال: أخرج تلـك
الملعونة، التي شقت عصا طاعتي، دعني أجرها من شعر رأســها،
وأمرّغها في التراب.

بالهدوء قال "علي": هدأ، يا عم ولعن إبليـــس، فمــا هكــذا
تتفاهم الأرحام.

وهل تعرف معنى الأرحام؟. رد العم.

كانت مسامع "خضراء" في الداخل قد حوت كل ما جرى مـــن
القول واللسان. سعت الباب ووقفت كشجرة لمدة بالروء،
وقالت بصوت المستحي المطمئن: سمع يا أبي.. أدخل بحفـــاوة
الأمن والبيت داربا. وهبُ أنت أخطأت في واجب الحق معـــك،
تعال نفي الأمر بأحد ونعطي.

لم يمهلها من بصره صرفة. فما صعب عليــه الســس مقدارهـــا
وعرها.. فعصت كل عادة مفروضة وقالت بالنفس الواحدة: ـــا

"حضر ء" سنت الني ربينها، وعمتها عِزّة النفس وقرارة الرأي..

والله، لو قطعني لا أبرح بيت زوجي.

كبرت في خاطر الزوج، وهول الأب مع نفسه قدامـــها، فعـــاد

خامر الخطوة يجر كعبيه على تراب الساحة.

* * *

هدرت ألسنة الناس من جديد، وصنعوا لكل حادث حديـــث،

وكان الروحان يسدان المسامع واحدة "نصين، والثانية نعجيين"،

(..فليصيغو من القول بينهم ما طاب)

دارت الأيام دورقا، وحصحصت بـــالوضوح أمور كسـاحت في

العيان، وكما تبرد مع الوقت كل خارقـــة.. بـــردت نســـمة

المتلسين؛ ولقد استعصت نشاعن يصرفها. وكان الأب لا يـــزال

من ستة وزوجها في الإعراض، وعمت بالدمامة عيشة بيـــت،

وربى الخصام بينه وبين أم "حضراء"، وحلفت باليمين أنه ممـــن

يهدرون آخر سنين أعمارهم في التخريف.. (فمـــن يقطـــع في

النهار الجهار رحيمه وحليلة مهجته؟!).

وعندما تشتد القتامة مع الزوجة في الصدر.. يكون ضيق البيت؛

يتقارب بالزحف على النفس والنبض، (وكان الـــعن يتفـــض

بكلام فيه حب "حضر ء" ومودتها، ولكن من يعلم ســـه، ومـــن

يدرك أن الأب لا يمكن أن يطأ قلبه عنوة!.. فإنه يتـــعف عنـــى

الوجه الخدور لتعتق أذيال عمامته، ويخرج مثلما يبحث عن مؤنس يقضي معه الحديث.

اليوم..

وبعد سمع من السنين مرور شحنات.. تنبت الثمرة وتورم بطن "خضراء"؛ ووجد الفرح له في ضلوع "علي" المكان، وتتعشش الغوط بين حنايا الخامل، وحين علم لأب.. فك اللثام، ودعا الزوجة والأهل لزيارة انقطعت طويلاً، وقابل بالرضى. "عفى الله عما سلف" وقد كان يقف عن عذر يمحو به خطيئته.. فجاء إليه كبيراً مفرحاً.

التمت أصابع اليد كواحد حين تقبض على ممسك النصل في "الحبيّة".

وجاء "علي" فحدّ الشفرة على رقبة الخروف؛ واستضاف الجار والقريب، ووعد لعم نميرة اسم الولد، أو الحماة إن كان المولود بنتاً. (فيهبي له الله من المولود الخير والصلاح وقرة العين).

* * *

تثارت حبوب الماء قوية ممتشة من سحابات الشتاء، واغتسلت واجهة الأرض مرة؛ فمند أيام وضوء النهار لا يبان له حدّ مع الليل.

كانت "خضراء بنت مسعد تعيش مراودة المخاض وكان "علي ابن القاسي" في تلك الليلة يعاني قلة الحيلة قدام زوجته التي

قرصهم البرد، وعصرها المخاض، فأدرج حصوته نحو بيت المعلم عند طرف القرية، ولم يجد بالدار أحد، فما كانت أم "خضراء" لتحسب أن ابنتها على موعد فوجئت به بعد الشهر الخامس السابع.

أقفل "علي" عائداً، وصفق باب أحته، وكان مطر الليل يتدحرج في ثيابه اللازقة بالبدن، قال له زوجها: "أدخل يا رحيمي من المطر.. سريعة، فتحت عند حماتها".

قعد ينتظر، وكانت فتافيت الوقت تنسج من خيوط العصب عرقها، وبعد وقت رآه مديداً قام كالملسوع وخرج.

كانت "خضراء بنت مساعد" وحيدة في الدار، والمطر في الخارج لا ينقطع، ولم يكن لأي صوت مكان في الأذن، وكان آخر ما استدركه سمعها صراخ المولود الذي "يخرج من الميت".

لم يستطع "علي" أن يجمع بين متناقضين حين دخل متأخراً، وفتش في قلبه فوجد "خضراء" نضرة كالشجرة الراوية لا تموت أبداً.. لكنها لا ترد على النداء ولا تجيب مناداته التي تنادت على هيئة القطر الخفيف من عينيه.

الآن..حين ترى عيون القوم هذا الشاحب الطويل المتسم يقولون: "إنه "منصور بن علي القاسي".. ويسمون إنه ابن "خضراء بنت مساعد" الشهيدة تحت مطر الشتاء وعصرة الولادة.

٢٧ ٨ ١٩٩١ ــ جدة

منشوراتي

بقرّ. أوكلوا شدّ على الزرع والحلال والأهل، وودّعت قومهم آخر شجرة لوز عند رأس الطريق الذاهبة خارج القرية. تحملهم سية إلى حج هذا العام.. فهذه ككل حج من كل سنة إنسه يقصدون "الأحمر والأجرة"، وفيه يجتمع حجيج من كل قطر غريب، ويأتي معه بكل شأن في الحياة غريب.

* * *

من بلاد ما بعد الحد؛ قوم جاءوا للحج.. يرطنون بلسان لا يفهم، ومعهم من أهل القرية بعض سعيد سيكون أول قصة للآتين من أولئك الذين يتركونه الحياة في القرية.

* * *

ها إنهم دنوا إليه بعد سفر طويل، أشعثت فيه وأغبرت الأبدان، وبعد سؤال طال معه البحث والتنقيب، فقيود بوعثاء سفر، وقبّلوه وقبّلهم في الرأس والمنحر.

سألهم عن الحال والحلال، و بدير والأهل و زرع والمطر، وسألوه عن عيشة المدن، وعن عمله مع الذين لا يعرفون لغتهم؛ فرفع رأسه حتى مطت رقبته، وقال إنه تعلمها؛ وبقدر على فهمهم وإفهامهم بها. وعده سوف ينزلون عندهم ضيوفاً ويأكلون طيب الأكل والشراب. فرحوا وهانت لأتعاب في أبدانهم، وحوت عيونهم المسرة والرضى

* * *

بعد شيء من الوقت؛ دخل واحد من أولئك القوم. فاقتحم بالدهشة النعاقهم، و فرعوا هيئتهم سكونه. فسرت في دو حلة الريبة و القلق. قام بينه "سعيد"، وفي حضرته عدد لا يحصى من الكلام المعوّج، والحركة المؤيدة باليدين، ليفهمه بأن القاعدين قدّامه من أهل قريته، وأنهم قصدوه بعد عناء البحث والسؤال في أول محصتهم.وراح يلحلح باللسان، ويهمهم، ويخرج العربية بغريب اللغة.

سأله الحاج الغريب بكلمة واحدة (لعلها تعني "نصوص"):

- "من شوري؟!".

فقال "سعيد" دون معرفة منه بما أراد:

- نعم، من شوري.

تأمله الحاج الغريب، وأعاد نظره إلى النفر القاعدين، ثم هز يده، وصفع "سعيد" على وجهه. فأحست بالدهشة و العجب عيون القاعدين من أهل قريته، وقالت خواطرهم.. لعل "سعيد" قد أخطأ في شيء لم يدركوه. وهذه حال المرؤوس أمام غضب الرئيس.

* * *

التفت "سعيد" إلى قومه، واقتصاد في القول.. أوضح لهم، وهو لا يزال مستعرضاً أمامهم معرفته للرطانات الغريبة.. أن هذا السيد، ليس كالذي سيأتي بعد قليل، فهو يحنو ولا يتفهم مقدم الرجال، ولا كيف يقوم معهم بواجب الضيف.

وقبّل على خده وجبره جمرتين من الوجع والإهانة دون إظهار.

* * *

بعد انتظار من الوقت.. دلف إلى الداخل السيد الآخر. كان "سعيد" يأمل في حضرته الخير.

ومثلما جرى له مع حضرة الأول، جرى مع هذا المدهش أمامه. وسأله مثلما سأله سيده الأول.. فقال "من شورى".. مد إليه بالكف الحامية فعدلت عيني "سعيد" ورقبته الممدودة إلى قدميه، وعلى بعد ذراع يجرجرهما إلى الوراء.

* * *

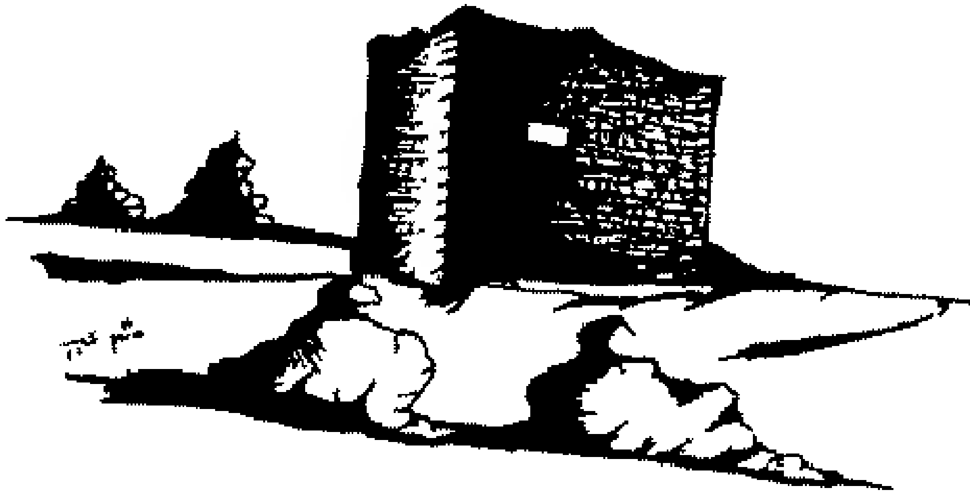
لم يعد للنفر المشحنين بالدهشة والحيرة والعجب وبالجوع والمهانة والتعب، مكاناً عند ابن قريتهم "سعيد"، فمضوا خارجين اتقاء مزيد الحرج والعقاب.

وحين ألمت بهم دوائر الكلام.. رأوا أن "سعيد" أراد أن يبدو في عيونهم عارفاً لرطانة بغير لغتهم، ويبني ذكراً حسناً بين

جماعة.. غير أن الذي كان.. أظهر ما لم يكن ينسبه في سبب، فليعفه الله على ما أصابه، وليعنه على تحمل المتعدين بعد عودته من الحج، ولتذهب أمور شوري مثلاً لا يقدر سعيد أن يصيف عن حرقته.

٢٦/٦/١٩٩١م ـ جدة

أبو الحصين



ملأت شهرته كل أذن في القرية وقالوا إن "عيّاف" رجل بصير، فهو يقول القصائد في المحافل، ويفري الجلود من بعد دبغها، وشاهدوه مرارًا يمسك بقدومه في حطب الغروب فيصنع الصحون والمحال.

وكان بعض رجال القرية؛ حين تفضى أيديهم من عمل في العصاري.. يقعدون معه أمام باب في ساحة الدار.. فيلهون ويكيلون في الكلام معه.. فحديثه لا يمل كما يقولون.

مرة يسقيهم القهوة، ومرات تكون أم عياله في شأن يشغلها.. فلا يشربون. غير أنهم هذه المرة جيء إليهم بالدلة المهيّلة ومعها صحن صغير؛ عليه حبات قليلات من التمر، ودارت فناجين القهوة وارتفعت بين الأشداق بالأصابع حبات التمر، وطاب الكلام لـ"عيّاف".

* * *

قال: إنه افتقد واحدة من دجاجاته مسيّة البارحة، وألقى بنظر عينيه المرمومتين إلى الأرض، وبرطم بشفتيه، ولم يبدُ شدقه الممسوح قليلاً في هيئة مرضية، ثم ما لبث أن هدب من تربيعة قعدته، وحرك يديه بكمّها العريض، وأبرم أصابع الأخرى على مهل ذؤابة لحيته الجامدة القصيرة، قال: إن هناك حديث سيقال.. وقال:

- يا جماعة الخير.. الدجاجة دخلت في فم "أبو الحصين"، و"أبـــو الحصين" عدو لكل الدجاجات، وإذا كان قد اقتـــنص دجـــاجتي اليوم؛ فإنه يعرف الآن طريق صيد دجاجات كل أهل القرية.
قال واحد:
- يحسبي "أبو الحصين".
قال ثالث:
- لا والله.. ما حقه إلا الرصاص.
أشار "عيّاف" لمرة مقتضبة من يده، وكأنما يرغب في الكــــلام فقال:
هذا هو الكلام.. فيكم رجال، لم يخرجـــوا إلى الوديـــان؛ إلا ببنادقهم، والبنادق ما صنعت إلا للرمي بالرصاص.. أقول لكـــم، إن "أبو الحصين" فعل بخاطري ما لم تفعلـــه خشـــية البيـــقية بدجاجتي، والحمى الحمرة عليها، فقلت: لا هنّت يـــا عيّـــاف، جماعتك ما يضحك منهم الماكر.. والله لو قتلوه ورموه قدامـــك بلا روح.. لأعشيهم على ذبيحة من الغنم، ولو اشتريها بقيمـــة عشرين دجاجة.

* * *

كان القوم في دين الشتاء، وكان البرد يجمع الحــــر أنفاســـه في الأيام. وكانت الصدور تقوم برائحة وطعم اللحم. فاســـتيقظت الحجوز التي سبقها التعب وجرى مع تعلق لسان:

يجيء به، ولو كان في أبعد الديار.

وما كانوا يتصيدون إشاعات، بشيء ذي بال يهم الشأن، أو بغير شيء.. وما كانت البنادق تستقر بين أيدي حامليها.. كان فجر اليوم التالي يواجه انتشار نفر من الجماعة تفرقوا في الوديان، يدورون عن "أبي الحصين"، (فأين يا أبا الماكرين من طوردتنا خفت؟ وأين ذلك الكبش المسحوب من بين بنادقنا؟، وأين من يحرك كالحرقة قدام عيّاف؟، وأين ساعة تتسهّأ فيها حرقة بصوتنا للشحم واللحم؟!).

* * *

حين بلغت الشمس مبلغ الضحى، احتوت الآذان نقر رصاصة ملأت صداها الوديان، فتوقف الباقون عن البحث، والتموا قرب مبعث الطلقة، وقالوا لا يطلق بعدها طلقة.. فلو سمعنا "عيّاف" ظن أننا قتلنا أبا الحصين وعشيرته، وهذا سيعفه عن الوفاء بنصيحته التي وعدنا بها.. فهو يريد أبا الحصين الذي سفك دم دجاجته ليس غير.

جاء ابن فلان بأبي الحصين من ذيله، وجرجره كجلد الذبيحة طول الطريق، وعلى كتفه اليمين رفعت أنفها بندقيته الحامية، وتقاطر النفر خلفه إلى دار "عيّاف"، صاح ابن فلان من حافة الساحة:

أخرج يا عيّاف.. عزمت عليه في سرّي.

* * *

كانت الشمس التي تكاد أن تبلغ كبد السماء بعد الضحى، تكشف كل خبايا الدنيا في العيون، وكان بيت عيّاف[1] يحتمي بصلابة الضوء، الذي أبان بناءً حجرياً مرصوصاً ربضاً وسط ساحة تتقافز في سماطيها الحدود شجيرات نور قليلة متباعدة، وباب النافذة الوحيدة المطلان إلى الساحة، والمفتوحان تعلق دقيق.. قد سطعا بلون القطران الأسود، وكان مصراع الباب يختبئ بدرفته في ظل فتحته داخل البيت.

في جهار النهار القروي يسيح كل شعب وحركة في الاشتعال بالجلال والورع.. غير أنه قد خرج على هيئة خيبة المرأة من لسان "عيّاف" وهو يندفع من المدخل بقدمين حافيتين وفم مفتوح، ليقول، دون أن يقصي عينيه عن أبي الحصين:

- هاه.. سميت عشيتك يا ابن فلان، لكن "أبو الحصين" هذا.. ليس هو الذي أكل دجاجاتي، هذا من وديان القرية المجاورة، وما هو من وديان قريتنا، وحسبت أنك فتكت بروح حيوان ليس له في الأمر دساً ولا بأساً.

* * *

ألقى ابن فلان ببندقيته عن كتفه، وأسندها على حجره، حيث قعد على أصابع قدميه مهمهماً: (فعلتها يا عيّاف).

تساؤل بالالتفات والدهشة رفقاء ابن فلان، وماشوه في القعدة وإهمال أسادق، فتقاسموا صمتاً كالصخر ربا على الجميع.
أضمر ابن فلان ومن معه لـ"عيّاف" أمراً، وأدرك "عيّاف" أنهم لن يتيهوا في لعبته، فرأى أن يستحوذهم بين الكلام، فدعاهم إلى داخل البيت، وسقى عطش لهاثهم بالقهوة المهيّلة، ولا زال يلاطفهم في هدوء صغير، ويتحسر على قوم بنادق تحصد العشائر وقت اللزوم؛ لم تقدر على صيد أبي الحصين الذي فتك بدجاجته.
كان ابن فلان ومن معه لا يتكلمون إلا القليل، وكانت صدورهم تعج بالانتقام، وكانت معرفتهم به وبصبره واحتياله تمنعهم من فعل لا يعلمونه. ودّعوه وقاموا. وكان أبو الحصين يشعر فاه مُداً صرف ساحة الدار.

* * *

هبطوا بعد أيام إلى سوق القرى، وعمدوا شيخاً عُرف بحل اشتباهات بين الناس.. حكوا له ما جرى لهم مع "عيّاف"، وبدت الحسرة والتشفي من حلوقهم، وطلبوا منه حكماً يرضيهم، وأكدوا على حفظ الأمر. فوعدهم، وألزمهم موعداً بالمجيء إلى قريتهم.
و.. كان ما كان من أمر المجيء، فاستقبل "عيّاف" الشيخ على حين السعة، وقدم له ولابن فلان ومن معه القهوة المهيّلة والتمر.

د ر بعد دورة فنجين القهوة حدث. وأوضح "عياف" الشيخ ما سمعه من جماعته، وقال:

.. واليوم، إن كنت ممن يأخذون ويعطون في الحق، ولا ينقصون ما وعدوا به الموعودين.. فجهز سكينك وأرق دم ذبيحك وقدام كل عين تعلق أبا الحصين على عصى تلك الشجرة في ساحة دارك.. ساعتها، نقول عياف كمّل وتمّم وأوفى بوعده قدام القاضي والداني.. وصلى الله على محمد.

قال كل لسان حاضر: "صلى الله عليه وسلم". وأطبقت الأفواه مع استعداد المسامع لرد يأتي من "عياف".. قال:

- جئت، والله يحييك يا شيخنا، والحق ما يرفضه إلا الجاهل، ولكن أقول.. إذا كان ابن فلان ومن معه.. يؤكدون لي باليمين والحلفان.. إن "أبو الحصين" الذي صادوه، هو بذاته الذي أكل دجاجتي.. فإني أوفي بوعدي دون تقصير، وأطعمهم مرقة ولحم الذبيحة هذه الليلة.. وإلا، كيف أقبل؟!

* * *

حينما التفت الشيخ على ابن فلان هذا ومن معه.. ورأى أنهم لا يقدرون على حلفان اليمين، وليس هناك ما يستدلون به على أنه "أبو الحصين" الذي أكل دجاجة "عياف".. قال ووجهه البالغ النقاء بالشعر الأبيض، وعقال رأسه يكاد ينحدر من مؤخرة رأسه، ويده اليمنى تومئ بحركة تلاءمت مع قول اللسان:

- يا عيّاف، هذ تعجيز، وفي التعجيز هروب، وفي الهروب إدانة، والإدانة عليك سكران الحق.

اختلطت الأصوات، وهاج وماج أحضرها سامسها، وضاقت ساحة المجلس بالهرج، فطلب الشيخ منهم السكوت، واستدر موافقة الطرفين على قبول حكمه، ولله على خير ما يقول معين.. فقال:

- اسمع، يا عيّاف.. السنة تعشينا جميع على العيش والسمن، ويسقط عنك ما رمت به من وعد الذبيحة.. بعدها، لا لك، ولا عليك.. كيف ترى؟!.

* * *

رأى "عياف"، أنه قد بلغ السبيل المسدود، وأن بعض الشر أهون من بعضه.. فالعيش والسمن ليس كتكلفة الذبيحة، ومجيء الشيخ في أمر كهذا ليس بالأمر الهيّن.. وماذا سيذاع عنه في القرى والقبائل؛ وهو الذي تملأ صيرته وطول ذراعه البعيد والقريب.. فقال بصوت يقين:

- "قبلت حكمك يا شيخنا.. الله يحييكم جميع".

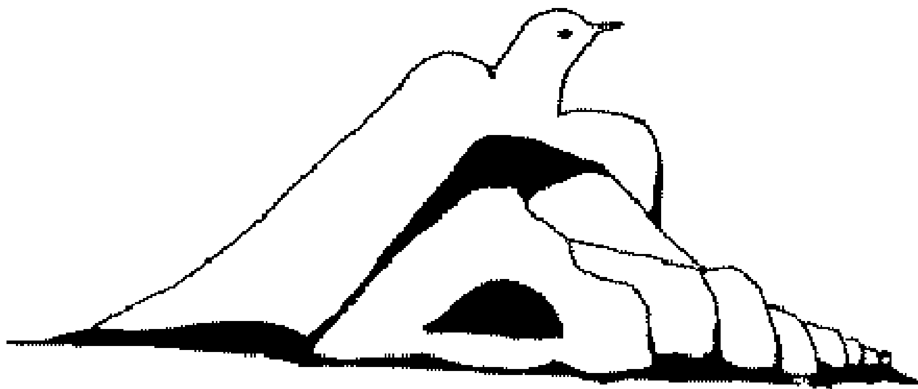
* * *

كان السير القروي يهبط هادئاً نمياً، تخترفه نباحـــــت متقصعـــة لكلاب، وكنت سنادق القوم ترتكز عبى كعوبها إلى جوارهــــم قرب جلستهم السموسه حول صحن العشـــــاء، وقد راحــــت أفواههم تصطفق بنقم العشاء الليلة مع سمس وكانت تعوح منـه لمذاذة محببة.

أما "أبو الحصين" فكان ينفخ عبى مهل صرف السحة، ففـــي الغد سيعدو مرتعاً برزاقات النمل والذباب.

١٢ / ٦ / ١٩٩١م ـــ جدة

الهديل



ستجد على يمينك، وأنت تدخل من الباب الخشبي بنقوشه الغريبة: "المتب" الذي، وكأني "المتب" في بيوت خلق الله. تتناثر من حوله أوانٍ لا بد أن يكون أعمقها مسطحاً حتى تسمح صلابته بحجم، تظهر قشرة سوداء، وربما كانت أتحرّ من معدن القدر الأصلي.

وحيث يكون الركن قريباً من "المتب". فقد حوى عيدان الحطب الجاف، تأكله النار، فتؤتي بعيره، ويبين لك في قصعة "مشحونة" منه، أن الفأس التي كان يشقق بها الحطبة الكبيرة، قد لحق بحده عضوٌ حي، فسال دمٌ لسن قليل.

وتأكيداً هذا.. سترى إصبع الإبهام في القسم اليسرى لتلك المرأة التي لا يخطئ الناظر في أنه وجه فلاحة لا تهدأ كالنحلة عاملة، معصوباً ببقايا قماش مغبرّ، وراحت تذهب عينه، فتتهدل أطرافه، ويحوش معه كل ما يمكن أن يعلق به.

الوقت سيبيح بصمه الأخير في عين المستضيء بالشمس، ولا بد للمرأة من إنفاق باقي النهار إلى ما بعد المغرب، في إعداد العشاء، وتأخذ توقف عن قرب يناسب قعدتها، أعواد الحطب، فتتوهج النار، وتضع قدرها الحمم.أما إذا رغبت في معرفة ما بداخله، فستمنعك غمامات الدخان التي تكاد تعمي العين، بكنك بمعرفة ما.. ستدرك أن به مقداراً من البستان المنحل الثقيل.

وربما لا تحصي فراستك في تقدير كمية، لكنك لن تزيد عن اسفرين أو الثلاثة.

وإذا تمعنت في الصبر قليلاً، فسترى شاربًا قد تعدى السنين بمسافة، بدقن صوبية بيضاء، تكاد تحمي رأس الصدر، فتهمر من أسفل وجه كثير التضاريس، مطبق الشفتين تحت الشعر العريض، وبعينين يقول الناظر إليهما.. إن صاحبهما كثير السؤال، ولا يعجبه شيء.

قامته قصيرة إلى حدود لفت العين، وليس لها نحافة، يلبس ثوبًا فاقع الصفرة قد تحنى عن قماش أكثر من الساق، حزمة من الوسط بجسد قديم، يميل إلى السواد.

بعد مسافة من الوقت لا تتعدى تحسب المبادي، ترى شابًا لم يحط كاملاً بعد شاربه، لا يشبه الأب في شيء سوى عينيه.

دقيق الحركة، لا يقيس بأبيه في الطول، ولا في العظام، ولا في تدوير الرأس والوجه، يسوط بجسمه حول كل صغيرة.

كان يظهر في مسسه تضبطًا، يدعك حتى حدائه ساء، ويذهب حاله إلى أن يرضى: قبل أن يسبق بعض المصلين يوم الجمعة ليقرأ جزءًا من القرآن. وقت إذ يتشت مع أبويه على الطعام، يبدأ بعدهما، وينهي أكله وينهض قبلهما.. لا تصه قليل الأكل.. لكن فقير سريعًا قوي القرض.

عند شرب القهوة، أو الشاي، يخلف اسمين لا يصلهما غيره، فوجب على الصغير خدمة الكبير، وتخفف أمه أيضاً، مبررة بأنه يتعب أكثر من عمره في شقاء الحياة، لكنه يدلق حمات، فضلاً أذيها، وتحمي يديها عن هذا الشأن، فيرسم خفقته على العينين العسليتين، ويقسمهما مع فرط عنق الإبريق، ويقدم فنجاناً إلى الشايب ذي اللحية البيضاء، فيتناوله بيد كشف جلد الكف فيها عن عروق زرقاء، وبثار متباعدة لبقع دموية صغيرة على شكل النقي، يضعه برفق أمام قعدته المتربعة؛ حتى تسكن سخونته قليلاً، ثم يفرغه في فمه دون استطعام.

أما المرأة، فإن فنجانها يرقص في انتظار شفتيها اللتين تكادان تتساويان مع مستوى مسحة الوجه، تقوم وتقعد.. ترفع الإناء وتعود فتجد سفرة خوص التي أكلوا عليها، فترفعها، وتعود لتقعد، فترى فتاتاً.. فتتقصاه فتاتة فتاتة، وتعود لتقعد. يكون الفنجان الساخن قد هدر سخونته في الانتظار، ثم يدهس القصيرة المحلاة في معصمها بكهرمان أسود، يخالطه في حرره؛ آخر بلون البن المحمص، تظهر على حوافه بقايا عجين فيبدو أبيض وقاسياً ومتماسكاً.

تشرب فنجانها في جرعات قليلة متقاربة لا صوت لها.

عبر شرب الشايب، والمرأة، لفنجانيهما، يكون الشاب قد قضى على الإبريق إلا قليلاً، ووضع الفنجان على قاعدته، حامياً حتى من لعقة برجل ذباب.

* * *

في كل صباح، يرى الشاب بعين الرائي، ويسمع السامع؛ الهدير والصفير. فالشايب يتذمر من هديل الحمام، الذي "يهدل" فوق راحته "سمعته" صاحبة قبل الخيط الأبيض من الفجر، ولا حل لهذا المقلق، سوى البيع أو السكين. يسكت الشاب، ويسافر فيما بينهما حدُّ الكلام، الشايب والمرأة. يتساويان في حججهما وقتاً، ثم يهدأ الشايب، وتبقى المرأة تسر حتى تنشغل بشغل لا يمنحها فراغاً للقول، ويخرج الشايب فيضع قدمه على رأس حمامة يقدّر قدمه.. يلعن الحمام وساعته، ويعود الهدير بينه وبين المرأة.

ينهض الشاب، ويقرع بقدميه في السلم الخشبي إلى فوق السطح، ينفّر الحمام المستكين والخارج عن صناديقه الصغيرة.. ثم يعود فيقعد قرب المشب، وتجيء المرأة وفمها لا يزال ينثر بعض الكلام المتقطع بالقهوة، فتضعها بقوة أمامه، وتذهب إلى شأنها.

ولن تلد شفتا الشاب كلمة واحدة، ولن يفتح فمه سوى لحبات قليلة فقدت شكلها، من التمر، وعدد من فناجين القهوة المنتفية من فطور الشايب وقتما عمّهما بالصباح؛ فردّا ردّاً مدعوكاً من فوق أنفيهما.

بقيت المرأة تنفي فتفيت بيتها، ثم رفعت ثوبها من أسفله إلى وسطها، وشدت دائرة أطرافه من الجانبين والواجهة، في حزام وسطها، فكأن الثوب بوجه واحد، واتضحت نقوش على كمي السروال الأسود فبينت فوق القدم، وبعضها قد نسل من مكانه.

تحت، ووهبت يديها مكنسة ذات أعواد دقيقة خضراء ومدببة. وراحت تكنس أرضية الحجرة الطينية، فيتعالى الغبار الدقيق، ويهبط على كل شيء. وكانت النقوش الملونة بألوان مزيجها الجار، ما جعلها باهتة، قد امتلأت بالغبار. فكادت تختفي الألوان التي قضى في صفها الشتاء وقتاً، وبذل فيها غاية ما يمكن من ذوق، على دولاب الخشب المحفور في الجدار، والعمود الذي يتوسط الحجرة، وأسفل النواحي حتى منتصفه.

وتلك.. هي المرة التي لا تحصى مع ما قبلها، يأتي الغبار على الألوان مع الأيام مع أرضية البيت تنال قبل الكنس رشاً من الماء. أنهت المرأة إثارة غبار مكنستها، وحاشت ما جمعت إلى الركن، ورمت بالمكنسة القش عنه من يدها، وكان رمشاها وحاجباها يتماجان مع باطن أنفها إلى الماء، فأخذت إبريق الماء الذي يستعمل للوضوء، وخرجت أمام الباب في حوض قصير، تغسل غبارها.

غسلت قدميها، ولم تصب الماء على إبهام قدمها اليمين، بسبب ساوشته من بعيد.

* * *

في الزاوية المقابلة لزاوية "منصب" النار والحطب، تدلت في غير بعيد عن الأرض صفيحة المكنسة.. قربة ماء من جلد الماعز، طُليت بالقطران، فبدت سوداء بلمعان غير مستقر من أثر الماء المضغوط بداخلها، أو قل، الذي يتجمع في جانبها السفلي.. لقد كانت كالدودة المعقوفة، يبرمها وتد خشبي ظهر جزؤه البارز بفور أمام كل عين.

كانت القربة تُسقط على أمهل من المهل.. قطرة.. قطرة، فتحفر القطرات في الأرض تجويفاً؛ يذهب قليلاً مع الوقت في العمق.

يحتار الشاب في كل مرة يهب عينيه لتلك الحفرة الغائرة تحت القربة، ويكيل بكل مقاييسه في الرأس، ويبحث عن مقنع، ويحاول تصيّد القطرات، فينتظر طويلاً، ويتساءله تلك المرأة السؤول عن سرحانه، فيجيبها بـ: "ما فيه شيء" ثم يرضي أتعابه تلك بأن السبب هو التكرار وهو كان متباعداً، ويريد: إن الماء قوي إلى حد لا يعرفه كثير من الناس.

جاءت امرأة إلى القربة، وفكّتها من معاليقها، و أفرغت ماءها المتبقي في قدر فارغ، فكاد على قدْره، وكأنما قيس عليه، عقفتها فوق كتفها اليسار، و جددت حذاءها، ثم انصرفت تملأها من

سنر حتى تبعد بعدد من عجلات الفصيرة، تسند بها قرنتها وقتٌ يسيرٌ، تسترد فيه نفسها بلاهث.

أما وإن كانت مريضه، أو نزمت بست بسبب قهر.. فس يكون في لبيت ماء، ورك حتى طعام بجـــــهر، وأحياناً لقـــهوة والشاي، وتلقيم الثور، وأشياء كثيرة..

يهبط الشايب إلى الدور السفلي، الذي يستقبل أنف الداخل إليه بروائح علف قديم، وروث.

ويتقدم دون خطأ إلى مربط الثور لربض يحـــتر في أمـــان الله، ويبهره مراراً يستحثه على النهوض فينهض على غــــير رغبـــة، ويقلبه الشايب بعينيه في سطح ظهره العريـــض، ثم يلتفـــت إلى مخرج البيت وفي لساحة الخاصة بناء الحجر الوصـــي.. توجـــد مربط كالأوتاد، وحزمة كبيرة من البرسيم، وسيأخذ في قضـــم أعواد الذرة على قدر مفاصلها، ويلف عليها باقتصــــاد شــــديد خيوط البرسيم الطويلة اللينة.

ويلقم الثور بواحدة بعد أخرى، حتى يرى بطنه ينتفخ ويتقــارب الامتلاء، فلا يزيد، وهذا شأن يسعد فيه الشايب تلـــك المـــرأة التي تحضر على تعب من البئر الماء، وتعجـــن وتصـــنع الخـــبزة وتطبخ، وتغسل الثوب والأواني، وتقطع الحطب، وتصنع معـــه عراكاً من الكلام في كل صباح، من بعد أغمة الليل.

* * *

تنبح حصوتك لأولى عند طرف الساحة، فتعثر عينك دون عناء، على قشرة دم سوداء عريضة، فوق وجه التراب، إلى جانبها كومة صفراء كالأعواد الدقيقة المتلاحمة. كأنما مُص منها مس الروث لذبيحة كبيرة. فتمسح خطواتك العمر حين توقفت هذه الرائحة، التي كما يقال في مثل القوم: رائحة "نعمي الصبور".

تحديها عن يسارك لتمضي للدار، فتعج هارية، أو متنبعة: قطعان كالرذاذ من الذباب، وتحوم بمسامعك: الطنين وخفيف الحوم.

قبل أن تمد يدك إلى حلقة الباب، لتقرع منادياً من بالدار، ينزف كصفقات الكفين المتحمستين.. جناحا الحمام المفزوع ويجسّك صوت الشايب المتحوب من الداخل: "من؟".

وتنذر المرأة طقة إصبعية دقيقة عجلة، فتهدب شتات الأشياء المتهالكة حول مكان جلوس الضيف، فيبدو متقادم مهيأ للجلوس دونما إحراج.

و..

ها إن رجلاً يظهر على استحداده بطاسة الماء، منذ أن حط متربعاً في المجلس.. أنه قادم من ممشى بعيد.

وها إن الشايب بيد مرتجفة، يتناول طاسة الماء، المملوءة من القربة.. من يد المرأة، ويقدمها مبتسماً إلى الضيف، ويقول له بعد أن شرب: "هني".

* * *

أم وأن الضيف ليس ممن يشرح له الخاطر ، فإن الشايب بعد أن يسمع من ضيفه ، أخبار الديار والأمطار ، وحاجة المعروفة التي جاء من أجلها.. سيكون جوابه ، بعد الرد على كافة الأخبار عما يعايشه من أخبار:

"أصبر يا صاحب "، وحقك سيصلك وافياً كافياً.

أما ان يعلمه بأن الثور الذي اشتراه منه، في ماضي الأيام، قد نامت رقبته على حد السكين.. فإن في هذا شيئٌ من التأجيل.

وفي أثناء هذا الأخذ والعطاء، كانت المرأة تركب في مشبت قهوتها، وتحس تراكيبها أيما إحسان، وتراكم حبات من التمر كثيرة في طبق صغير لتقدمه رفق الدلّة المهيّبة.

فيشرب الضيف فناجين كثيرة منها، ويلمم النوى على حافة الطبق فيراه كثيراً، ويكف عن الأكل.

يحلف باليمين الشايب على الضيف بالاستزادة.

ويحلف الضيف أنه كما يقول الكل من الناس : " ما أوفره".

تشير المرأة من قرب المشبّ إلى الشايب، إشارة من يدها،إن كان الضيف سيتغدى .. فيسأل الشايب ضيفه بعد وقوف عن الكلام قصير، ويحلف الضيف أن خلفه ممشىً بعيداً، ولا وقت للغداء، فيصدقه الشايب ، ويهز يده في حمية إلى المرأة.

يلزم الرجل عصاه الجميلة، والتي لا تشبه أي شيء به سخافتها سوى أحد أصابع يده، لا تدفع عن خطر ولا شر، لكنها عادة

رفقت كل عدد و ت. فاليد يس من طبع صحبها ن تكــون حالية.

فيرد الشايب وفي صدره نفس مريح نقوب صيغه عدر المتأخين: إن شاء الله .. حقك سيصلك.

ينهض ابرجل إلى الساحة محفاً في ظهره تراحيب مضيفه وهو يودعه إلى الخارج، وتمتُّ نصيبتها تلك الدنانات عن يمينه، فيحيط بطرف عمامته أنفه وفمه، وتنسو ذؤابة صغيرة سوداء من لحيته تحت الشامة، يمشي حنيتاً كأنه شيء لا قدرة له عينيه يطارده، ولا يقطع حطوته إلا شاب على حمارة رمادية قصيرة.. ينهال عن ظهرها قافزاً ليسلم عليه و.. يمضي لقد كان إبن مضيّفه.

اهتزت نظرة الشايب، و رتحت حطواته، فكاد أن يميس على جنبه، ودمدم بخفوت: يعوض الله".

ومع أنه كرء عينيه رأى مربط الثور خالياً، إلا أن الرباط و"الجرام" كانا يوهجان في صدره لوعة ما.

ووقتما دخل على المرأة، لقيها تذكر ذلك الرجل بعض السوء، وتهيل على سيرة دعت لشايب لشراء الثور، بالسبات.

فأخذ الشايب وأعطى معها في الكلام، وقال بصوته المتحوب، إنها تعترض على قدر الله، ولكل شيء سبب، فهو لم يأكل الثور

من زرع بذرة الذي أعجب بخضرتها ونضارتها.. ثم حصده ومات.. وولد:

أحمدي الله. أما الحقيقة فعلى آخر نفس، فلحمه، وتصديقا للحمه، وهذا حال الناس مع خلافهم.

وكان الشاب يقف بينهما، فيلقي بكلمة هنا، وكلمة هناك، رغبة منه في إسكاتهم عن أمر ذهب وانتهى.

و..

المستورة



وأنفقت لها سهارت سخطها، و سبي سود دها، سبين صروف أحداث لم تكن مع الزمان تحسب بوقعها حسابا، فسالت من بساطتها، وفاضت شعاً من مرارها؛ صفقت الكف بالكف، وسالت من العين مثمما سالت من الأخرى؛ مياه حارقة، وعسير د ت قاتمة.

قالت النفس الراكدة في تعب الدنيا: (وماذا بعد يا واهبة الحزن دمع العين، وأنّة الصدر؟، و لله لا تفيدك الأحزان، ولا ندب الليالي).

كان القريب: بالاسم قريباً، وكان الصديق في المرثيات يمر بالعام.

* * *

حملت "رحمة" أسها الرجل المريض، سحبت عن شواربه همّ الأطفال والزوجة، وصاحبته من دار إلى دار، ومن مستشفى إلى آخر، وقالت: (أحمله على كُبر الأرض، وبُعد الأسفار.. يطيب، يطيب، ولو بعد حين بعيد).

وكان المرض "الخبيث" يتفسح بلؤم في الجسد الطريح، ولما حان الحين الذي لا يؤجل؛ ودعته بقبلة أخيرة في اللفافة البيضاء، ولم تجر خلفه في الجنازة، ولم تقعد باكية فوق القبر، ولكنها كتمت ثم همرت غصصاً بين يدي زوجته والأطفال.

فتحت ذراعيها ونادت ببقين: (هلموا يا فرح عمري، أحضنكم من لقمتي، وأرد عنكم البرد بكسوتي).
وملت إلى جانب أطفال منها أميت: الزوجة الشابة، فمنحتهم كل حب قلبها، وكل عطف حناياها.

* * *

نما الأطفال، فكبر الصبيان، وقطعوا جهد دراستهم، وكبرت البنات، وكذا رأيت ثمرة الدراسة، وجاء يوم تخطو فيه المراحل، وكانت "رحمة" تحفظ حتى قيمة البيضة وصغير السبيح الذي تقيمه وزوجة الابن بين أيديهن، وفي غير تقتير: يعيش الكل في ستر وأمان.
(ماذا كنت عنيت في هذا الصباح المقتم يا رحمة؟).
كنت أن يعلن الأولاد بينهم "هساراً جهاراً"، فأنهم لابد سيسافرون! وإلى أين؟!
إلى المدينة التي يضيع فيها الراعي والرعية، إلى تلك الأماكن التي يقولون أنها كالوحش، يأكل الآتي والذاهب، ولكن لابد من السفر، ففي السفر إلى المدينة تستكمل الدراسة، ويبقى الدارس في آخر الرحلة ما كان من أجله درس في الطفولة وفي الصبا.
مسحت "رحمة" على كفيها، كأنما تنفضهما من شيء عالق، وعنفت: (حسرت يا رحمة.. تبقين مع زوجة ابنك، تتسندين

المسافر و لقادم عن أحفـادك، فيقولـون: في الجامعـة، لأولاد واسـت، لكن دراسته وحياته بين يوم يتخرجون).

* * *

دعت زوجة الابن أم زوجها، وكانت تدعيها ـــــ "أمـي": إلى العشاء فامتنعت، ولم يكن في ذلـك لامتنـاع مـا يدعـو إلى الخوف، أو التعب، فهي تأكل في ذيل النهار وجبة خفيفه واحدة، وتبقى تشرب القهوة المهرة بالجنزبيل، حتى لتكاد أن تختنق.

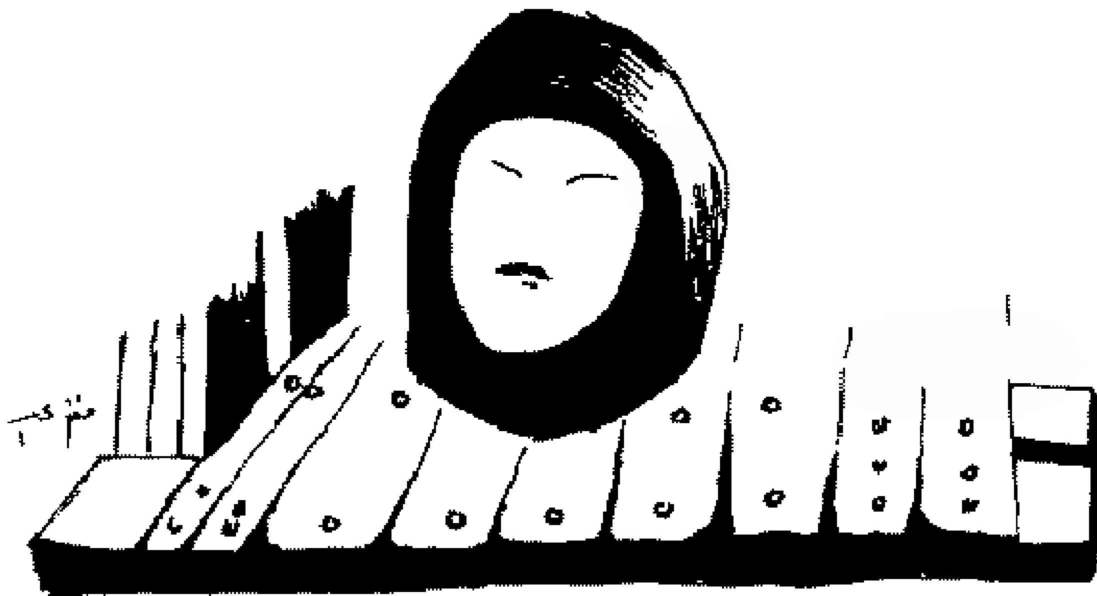
قالت زوجة "المرحوم"، وصرفت عينيها إلى شيء بعيد عن وجـه الأم:

(كيف يا أمي، تحملين الهم عنى الأولاد؟، أنا قلبي يفيض بالعرقة، ولكن عيني تمتلئ بهم، تتغير حياتنا، ومن أحسس الناس تصبح بعد التعب والغربة وعذاب البعد.. قولي، كيف لو أنهم لم يتعلمـوا؟، ينفعون أنفسهم، وينفعوننا، وينفعون الناس).

شربت "رحمة" آخر قطرة من الفنجان "الصيني" وحركته بوضـع دائري بين السبابة والوسطى، ثم أدرت وجهها المغضون في ثنايا "الشيلة" سوداء خفيفة، وابتسمت ابتسامة كانت زوجـة الابـن تتمناها منذ زمن بعيد، وراحت تعدّل من قعدتها، وتنظر بعينيـن فرحتين إلى الفضاء الواسع البعيد مـن خـلال فتحـة الباب المستقبل.

الدمام ـــ ١٩٨٩م

حمقة



وزاد نعت "عاصي" مع جري الزمان، من زوجته "حمقة"، ونبع منه خفها حداً دعاه إلى شدّ نية السفر.

وحين أزف به الوداع.. قال موصياً؛ وهو يسير إلى تلاث "خصاف" متفحخة بالحبوب: (انظري يا مخبوقة، عندك اليوم هذه "الخصاف" لن تحتاجي بعدها في القرية أحد؛ واحدة لشعبان، والثانية لرمضان، والثالثة لقصيّر.. سأعود ربما قبل نهاية الشهر الثالث).

* * *

مضى تتقاذفه الطرقات.. من قرية إلى وادٍ إلى حسن، وساقته خطوته إلى صوت رقص ودفوف.. فدخل قرية على مقربة من زوال الشمس، ووجدهم بالشيْث يرقصون ويلعبون متقهرين على الصبر، غير أن هذا لم يستجر فيه النخوة المستقرة – كعادة من يهتز مع الراقصين –، بل دنا من عجوز تجلس على مسقة رمية الحجر من القوم.. تنظرهم وتمسح مدامعها، وسألها عن أقعدها في هذه الحال!، فالقوم يبتهجون ويلعبون ويرقصون؛ وهي منكفئة تبكي!.

قالت إنها تبكي على بنتها التي كانت من أجمل الصالعات في أول العمر، وقد خطفت بها المنية، وبقي لها في القلب احتراق، وعندما تكون بهجة القوم تزلزل أبدانهم بالرقص، تطغى بها الذكرى، وترى طيفها بينهم كنفرة الغزال.

حدّث "عاطي" نفسه، وقال سأرى إن كان في الديار أحمقاً كحماقة تشابه "حمقة".

ابتهجت سرائر العجوز، وإن بينها دخلت تأتي بالحلي والمال، حين عرض عليهم مقدرته على إيجاد بنتها بين القوم، بدف يخرق الآذان. ورقص يعمي الأبصار، وقال إنه بعد أن يقبض منها النقد والجوهر.. ترمي بناتها الدف وتنسحق بلعب الراقصين بأبلغ ما يمكنها من الجهد والمعرفة.

فعلت العجوز مثلما أراد "عاطي"، وهزّت البنوة العاصفة في عظمها، فاستدرجت عجب القوم وضحكاتهم.

وكان "عاطي" وقتها.. قد اختطف المصاغ والمال، ووهب قدميه للطريق، وحين علموا بعد قليل، أن غريباً أوقع بعجوزهم الحمقاء ما أوقع.. هدموا رقصتهم، وجروا كالقطيع المندفع خلفه. لكنه درى عما نووه خلفه.. فأضاف إلى قدميه العزم والتولي.

قابل "عاطي" مزارعاً يحصد بالمحراث خلف ساقية بثورين؛ يطلق فيهما من الشحم سنامهما، وكان لأهل قرية العجوز.. التي جاء منها هارباً (ثأر) رقبة رجل في خلاف قسم نصف فيه السادق بأبوعها، عند قوم منهم هذا مزارع خلف حلاله.

حدّث "عاطي" نفسه. بأنه لو غرر بالمزارع وهو يسأله عما دعا الناس خلفه يجرون؛ فسيجيبه.. (رأوك وحيداً قرب بيوتهم

تحرث في أرضك.. لهم فيكم رقة رحمة وجدعو يسهرون دمث).

لم يكن "عاصي" يعلم بما قد حدث بين القريتين.. عثير أن الصدفة كانت في طريق مكنسه.

التفت المزارع إليه قائلاً: (هات هيئتي، واعطي هيئتك، أتنكر بها وأهرب، وهذا حلالي ومحراثي بين يديك) وهرب.

مر الجماعة بـ"عاصي" وهو في هيئه وملابس لم يكونوا قد رأوها من قبل فيه؛ فما عرفوه.. بل سألوه إن كان رأى غريباً مر هنا؛ سرق عجوزهم ويريدون الأخذ منه؟!

قال.. نعم، جرى في النور؛ انظروه يجري هارباً من هناك. فجروا إلى هناك.

حطّ "عاصي" محراثه و"مقرنته" عن الثورين، وساقهما قدامه على مهل إلى الطريق.

وقف بباب الدار ونادى بالصوت المرتفع:

- يا حمقة..

- ....

- يا حمقة.

ولم تجب حمقة.طرق الباب قوياً وملحاً؛ فأجابت:

- اسمي ليس حمقة.

عجب لصوت زوجته تستنكر اسمها! فسأل:

- من أنت يا ...؟!

أنا زهرة الوادي .

نعم: زهرة الوادي، قبلها.. وإلا لن أفتح لك.

فقالها على كره وعجب، ولم يغب عنه أنها قد فعلت أشد حماقة مما هي عليه، لكنه لزم كل جيوش الغضب في صـــدره؛ وقعـد قربها ليتعرف إلى ما جرى معها في الاسم الجديد.

قالت إنها اشترت اسماً جميلاً، بدلاً عن ذلك الذي يعيّرها بـه الناس: بكل ما تملك من المال والجوهر.

وعن "خصاف الحب" الثلاث التي تركها لهـا قبـل سـفره.. فقالت جاء "شعبان" فأخذ خصفته، وجاء "رمضان" وأخذ خصفته، وجاء "قصير" وحمل الخصفة الثالثة التي قلت لي أحمل باسمه.

صاح "عاطي":

- يا حمقة.. الخصاف الثلاث؛ لشهور الثلاث؛ ليست لرجـال ثلاثة.. هل ازددت حمقاً؟!

ردت من على أنفها:

- لا تدعوني ثانية بذلك الاسم، لن أجيبك.. أنا زهرة الوادي.

* * *

حضن "عاطي" بين يديه جثته، كأنما يردها عن السقوط، ثم شدها بالأصابع حتى كاد ينتزعها مع شدقيه، ومن فتحة الشلفة

ساق عصره إلى الطريق البعيد، وراح يهذّ رويداً، ويلمس الأمور:

(فقد كان خفيف الباب، وقت إذ كان يوصي زوجته معتدداً الحصف.. رجل، ضب بصيرته عليهما، وفي كل شهر ينكّس هيئته ويجيء بأحد خصمه ذلك الشهر وهكذا جرى بكل الشهور التي كان "عاصي" فيها غائباً، وقبل عودته بأيام.. عاد في هيئة رائعة بعبّر اسمها الذي لم تكن لترغب فيه). وعاد يذهب مع خاطر في الحديث "عاطي":

(كنت أدورّ عن قوم بلا حماقة، ولقيت أنت ربما كنت أهواهم).

١٩٩١/٦/٢٧م ــ جدة

نـوادر "أبـو سالم"
مع الحيـوان



١ الجراد

في لأقوال متداولة في المجالس، يؤكد أهل لقرية أن "أبو ســـم م يتعرض لأدنى حس في دماغه، بل إن أحد المتحدثين قال إنـــه رأى بعينيه الماقبتين،، يصيبهما العمى إن كان كاذباً - ، رأى جندة ونمل "أبو سام" عندما دعاه ليطلي رأسه بالماء والصابون، ويستحد موساة الحلاقته:

نسمة من أي أثر تعرضت له دون علم بيفيه.

فماله؟! مرة بالذكاء ومرات في العماء.

* * *

دحل "أبو سالم" من باب البيت، واهتز الباب حسبي في أذني أمه العجوز، وكانت تقعي من العجز في ركن الدار، وتلمّ حولها ما تستطيع من أغطية البرد و خلق، فهي تستشعره حتى تحـــت دفء الشمس الصيفية.

سألته عن الصحيعة التي هبطت على وقت الغمة فجعلته يندفـــع كما هبوب العاصفة! أجاب وهو يقدم ســـاقيه نحـــو مغـــلاق السدقية كما هبوب العاصفة! أن الجراد قد غزا المزارع، وأخـــه يحل بعذوق الذرة، ويحيل بياضها إلى عراجين بلا حبوب، وقـــد تحوّل كل أخضر لخمرته.

* * *

جمع الفلاحون غرائسهم، وتعثر أولادهم في المزارع يطاردون الجراد، ويصطادون منه في الأكياس، فيقفز وينسرب من كيس جانبي، وكانت السماء صافية، والشمس تسيل فوق كل شيء دون نحي.

* * *

قعد "أبو سالم" على رؤوس أصابع قدميه في ركن أرضه الخضراء، وعبّأ بندقية الصيد، وكمن يتهيأ بحذاقة لتصويب "قمرية" على غصن بعيد.. راح يصوب فوهة البندقية نحو عذوق الذرة.. ورمى، فعلا رصاص القنص، وتعب كتفه اليمنى.. بل كاد يحطم، وها هو يحارب جيوشاً لا تحصى.

حين أدرك أن المقاتل في العادة يستسلم حين يخونه السلاح.. رمى بالبندقية أرضاً، وقد سخنت ماسورتها، واستهلكت ذخيرة الحزام المشدود على الوسط.

١٩ ١٠ ١٩٨٧م ـــ الدمام

٣ الثور

خفّف الشتاء عُقب رحيله، سيرةً طويلة في عظام أم "أبو سالم"، وأضافت إلى دعائها الملحّ – بأن يأذن الله بهزيمة البرد –، وقتاً سيطول تقضيه إلى جانب موقد النار، وقالت، كعادتها.. إن شمس مؤخرة الشتاء وطلائع الربيع تكون باردة.

أما المساحات المحدودة بضيق، والتي غالباً ما كانت تحيط بالدور، فقد نهضت من غمرها وحولها نباتات خضراء، وزهور صغيرة، وأشواك لينة كثيرة، وكانت تغري الناظر إليها بهجة ربيعية منشرحة تحت هطول الشمس بعد غياب طويل.

وكانت الأرض تهيئ أديمها الرطب لتلقي البذور تحت سكة المحراث. وقالت أم "أبو سالم":

(يا ولد الخير.. دنّى علينا موسم البذور، وامتلأت الآبار من مطر الشتاء، واخضرّ كل عود يابس، وتوفر علف المواشي.. فإننا نحتاج إلى ثور سنام سمين، وجهد فحول، نجعله جروراً للمحراث. سروعاً لماء الغرْب من البئر، فاهبط سوق القُرى، واستعن بالله ثم بخبرتك في الشراء.. وفقك الله، ودلّك على بغيتك).

أخرجت من "شبتها" عقدة مصحومة، ففكّت رباطها، وفصلتها عن آخر تجاعيدها. وريالات معجونة تنفح الدفء والرطوبة

وروائح العجور سيّ لا تُحصى، وأكدت "ها كانت تؤمها مـــــن سائق الرمن، و "تُنترّ عنهم الدنب".

* * *

فاص وحه "أبو سالم" بارضى، وقبض على "دمون" لحيتـــــه، و"معطها" من الانفعال، حتى اندلق معهد نصف شعته لســـمى، وتلك لرمة انوعد بالتنميه.

* * *

جال في سوق المواشي، حك جلدة رأسه اسسيمة وفكر ثم قرّت عيناه عبى ثور أحمر" تمامي" اموله وانشأة ســـاوم وقـــاوم في الثمن، عير أن البائع زد مـــن القيمـــة القائمـــة ثمنـــاً لربـــاط ولـــ"حزام" الأدن، و م يمانع "أبو سالم" واستوثق من صاحبـــه طبع ثوره الدي لا ينطح، ولا يرتحْ ولا بعصى لامره أمر المريد.

* * *

فرحت أم "أبو سالم" بالوافد الجديد، وعرلت عبى سنامه وأذنـــه أنشقوبة كلام المديح،و قامت برغم برد عظامـــها، ومســحت سنها د ت الخاتمين الفضيين المكسري اللمعة، على ظهر الثور

وكان "أبو سالم" يهيب بفرسته، ويفتل شاربيه، وكأنه هو الذي صاغ ستامه الثائر.

* * *

أصبح صبح صبوح، واقتاد "أبو سالم" من الرباط رقبة ثوره إلى الأرض، فركّب عدة الحرث من أمام السنام، إلى جانب حمارته الرمادية، ورفع "عَرَقة" سوط الحسد داعياً الثور نحو العمل. فهز الثور ذؤابة ذيله وتقدم خطوتين ثم.. تسمّر كشجرة صخمة، نهره "أبو سالم" لم يرد خطوة، مال على ظهره بوجع السوط فما تحرك سوى أن يؤرجح رأسه كما لو أنه يطرد ذباباً.

أهمل مقبض المحراث، وتقدم إلى رأس الثور، وهو يشد بيده على عصا الفأس قائلاً في عصبية جبلية:

(خيّرتك، فاختَر..

تعمل مثلما أريد، أو ترد لي دراهمي، وإلا...)

الدمام ـــ ١٩/١٠/١٩٨٧

٣ الأرنب

لم تكن الأرنب على الغالب عند أهل القرية بمعروفة. تصادفهـــــا المبادرة في الجبال البعيدة عن إقامة سكن الناس، تقع في طريـــــق أحدهم، فيعرفها بالوصف. كان من أبرع أوصافها: أنها تشبـــــه في جسمها القط الكبير، وفي شفتها العلياء شفة الجمل، وفي ذيلهـــا، ذيل الحَمَل، وفي أذنيها: أذني الحمار، وتقفز كالصعصعة، أمـــا إذا فاجأها الخطر فهي كالغزال النافر. وكان الكل يعلم علم اليقين، أن الأرنب مثلها مثل القطط، تحمل وتلد، وترضع وتفطم.

* * *

السماء تكتســـي بحشد متعضّ من الغيوم، ونفثات الضباب كما يقولون: "لا تشوف طرف إيدك"، ومع كل هـــــذه الأسبـــاب المدججة بطمسة نور بقايا النهار، فقد كان وقت أذان المغـــرب يكاد يحين.

كان "أبو سالم" يريح مسحاته على كتفه اليمـــين، ويجرجـــر قدميه عائداً من الوادي إلى البيت، وسيطوف بالطريق المحيطـــة، بالقرية من جهتها الشامية، ثم يلقي السلام على جماعة منتظري حلول وقت المغرب، يصلّون.. ثم يعودون إلى بيوتهـــم للعشــــاء والنوم، وكذا "أبو سالم".

* * *

أشجار سور حسي تتورع بلا نظام في مسحات أمام سوت،
وفي الجهة شامية ربما لسبب أو لآخر - كانت هناك،
تنتصب منذ عشرات السنين:
تطرح ثمرها مقصة عاماً بز آخر، بد كانت بجذوعها سنة سود،
وكالقرفة المحروقة، وأغصانها شائحة، صحبة كمحطات
للعصافير، والجرابات، وبعض الحشرات لأن تقيم بها مساكنها.

* * *

ألقى "أبو سالم" بأغلظ الأيمان - وهو على وضوء أنه لا
يقول سوى الحق.
فقد مرقت قاطعة طريقه.. أرنبة بيضاء تتبعه قطعة حارتهم
الكبيرة، وحينما تتبع أثرها بين اللوزة، عثر على عشها وبداخله
بيضتان كبيرتان.
كان الجماعة يتذكرون بعض الأحاديث في فصل العمل الصباح،
ولما ذلق أبو سالم ما جرى له - بعد إلقاء السلام كان
وقت الأذان بالضبط يحين، فأذن المؤذن، وكان يحب السوادور
"الأبا سالمية" حبه للقهوة والتمر، ولم يكن على صحبة من
الأذان، فقد كرر "الله أكبر ست مرات دفعة واحدة، وختم "لا
إله إلا الله" مختنقة بدفعات هوائية تشبه العطس المكتوم، مما دعا
بالآخرين إلى الإفصاح بها على هيئة قهقهة واضحة لكسر الأذان
الصاعبة لوقار الأذان. ١٩ - ١٠/١٩٨٧ الدمام

٤ العنز

للشاعر في القرى مقام محسود، وله الموضع المذكور عند الصبايا. وله ساعة القول، وله في شدة المناسبات حكم الفصل وطاعة القاضي.. فلم لا يكون "أبو سالم" شاعراً؟
ولم لا يفرض في هذه الأمية بين يدي الجماعة بين حين وحين؟

* * *

قالوا: تسمى بإيهامه.
وقالوا: علّه تصيب، وعنها تجيب، فإن "صابت" فما أسهلها عليها، وإن خابت فما أصعبها عليه.
أشاروا عليه، أن شياطين الشعر لا تأتي كل من يرغبهم.. لكنه قد تجيء من يطارح وحدته معها في الليل بقفرٍ بعيد عن المساكن، على أن يذبح لها عنزة، يوزع دعوته بدمها.. يخلع جميع ملابسه ويقعد إلى جانبها.. "عارياً كما خلقه الله".

* * *

تناصحت الصبول بخاطر "أبو سالم"، ووازن بين الرغبة والمخاطرة، وكان الخوف من جن الليالي الغدرة؛ ينمو مع كل الأهالي منذ الطفولة، وكذا نما مع "أبو سالم" إلى جانب عشقه للشاعرية.

غير أنه عزم، وكان إذ عزم قبض على الدلو الخشب، وجذبها بعنف بسيط حتى تنجذب بمرارة الشفة السفلى.

فاختار عنــزة سوداء من بين القطيع، وأركبها كتفيه، فتدلــت أطرافها عن اليمين، وعن الشمال، وبدا رأسها قريبــه وأذنيــه الماصتين كالخرق الخامسة.

وعلى حين نوم الناس بعد صلاة العشاء، وهب قدميه للفيــافي البعيدة التي لا يحدها سوى شبح الجبال في الظلام.

* * *

أسند العنــزة عن كتفه على مهل، وكأنه يمسك سماً مــن القربة، لكن هدوء انسيال السمن في القِرَب، ليس كانهمار مطـــير ساهرة من لسان العنــزة وسط الفيافي في الليل.

شحذ سكينه على حافة صخرة بارزة، وفــرك بحدّها رقبـــة العنــزة فحرحر الدم، وتدافعت أطرافها الأربــع في الفضــاء الرحب طويلاً.

لم يفصل الرأس عن الجسد، حتى استوى منتصباً كالجذع، وجمع ملابسه واحدة بعد واحدة.. ثم قعد متكئاً إلى الصخرة منتظــراً شياطين الشعر حتى الصباح.

* * *

علم الأهلون أن العشاء على ذبيحة عند "أبو سالم". ووقفت زوجته، إنه جاء بها مسروقة، وتعب في سلخ جلدها الذي برد على لحمها في الليل، وأن لحمي هزّ أوصاله.

وكان "أبو سالم" يمضغ قطعة متجلدة من لحم بعير، يبلعه كما الحنظل في صمت جارح لا يعرف معناه إلا هو.

٤/٧ ١٩٨٨ ـــ الدمام

٥ ـ القطة

لم يكن السبب الذي جعل من هدوء أول الليل، وتهيؤ كبير العائلة وصغيرها، للعشاء المنتظر، جديراً بحاصل ما حصل.

فها إن "أبو سالم" يدفئ يديه المطهرتين بماء الوضوء.. على خفوت النار المتهالكة أمام قعدة جسده الململوم كالقبضة، وإلى جانبيه: الزوجة التي هتكت طاقتها منذ صلاة العصر.. تعجن في قدر متوسط أسود.. الطحين والماء والملح، وتسوط بهراوة قصيرة عصيدة الذرة.

وثلاثة أولاد، اثنان بزوجتيهما، وكلاهما ينتظران مولوداً، وبنت في التاسعة.

* * *

كانت قطة رمادية هزيلة كالخرقة.. تموء، وتلف بمكان الجمع، وحيناً تهرهر، وتمسح برأسها.. ثم بذيلها على ركبة القاعد. نهرتها زوجة الابن الكبير:

– هيا انقلعي.. ما تشبعين يا مسعورة؟!

نظر "أبو سالم" إليها مؤنباً بنظرته الرخوة:

– لا .. لا ، رزقها من رزقنا.

امتدت يد "سالم" إلى ذيلها، وجذبها كأنما يشدّ دلـــواً فارغـــاً، فتشبثت القطة بركبة أخيه، وغرزت مخالبها الأمامية، فصعق مـــن الوجع.

* * *

حينما فزعت القطة.. كانت تلقي بخوفها وهشاشة عودها حيثما التجأت.. في صحن العصيدة و"المرقة"، وكانت "المرقة" تنضـــح ببخار حارق، وتندلق.. وحيث أن "أبو سالم" قد هذّب لقمـــة أولية، وحفف أطرافها، وجعل حفرتها على هيئة فنجان القـــهوة الصغير، ولم يُهيأ لها أن تغمس في المرقة.. هزها بـــين أصابعـــه، وقذف بها، فجاءت دون عمد في وجه زوجة الابـــن الصغـــير، وكانت هي الأخرى، تجهز لقمتها، وظنت أن القذيفـــة الليـنـــة تلك.. جاءت من يد الزوج، ولسبب ما دحرجت لقمتها أمـــام يدها، فوقعت مع الغضب في جبين "سالم".

* * *

قال الناس:

– عيال "أبو سالم" تحاذفوا بالعصيدة.

– "الله يكثر العيش".. غداً ينتقم منهم رب الأرزاق.

– ".. تحفرها أصغر الثيران، وتطيح فيها أكبر الثيران".

– "الله، لا يضلنا" العقل نعمة.. حسدوا القطة.. فأكلت حـــتى انتفخت.

* * *

كانت القطط تحوم في المناسبات حول دار "أبو سالم"، ثم تنتصب آذانها، وتجري كالريح، فبعد ضحية عيد الحج، جلس "أبو سالم" يقطع اللحم إلى فتافيت صغيرة، تحفظ مع الملح والبهار الأسود، بعد طبخها أدماً لليالي الآتيات، إذ امتد رأس القطة، فاجتز "سالم" أنفها بحد السكين، وقذف بها إلى الساحة.

يناير ١٩٩٠ ـــ الدمام

